

فیدیریکو غارثیا لورکا

أعراس الدم

ترجمة: مروان حداد

العنوان الأصلي

Bodas de sangre
Federico García Lorca

مقدمة

مانويل فيفيرو¹

بين العناصر، الأكثر أهمية، التي تميّز ما سُمّي بـ "جيل ١٩٢٧"، العمل بفعالية على التجديد في المواضيع والأشكال التقليدية، واستعادة الأهمية لما هو جماهيري وشعبي كمنبع شعري، وهذا ما يشكل منطلقاً أساسياً من أجل فهم أعمال مؤلّفي تلك المرحلة.

هذه العناصر متحققة في أعمال فيديريكو غارثيا لوركا بكثافة واتساع جليين أكثر مما لدى أيّ من معاصريه. وقد وضع الحضور البارز للتقاليد الشعبية أعماله في مصاف الأعمال الكبرى في الأدب الإسباني.

منذ قصيدة Mío Cid الملحمية، مروراً بالقصيدة الغنائية القصصية "Romancero"، ورواية الصعاليك، ومانريكيه، وثيرفانتيس، وكيبيدو، وماتشادو، وإيرنانديث، تشكل التقاليد الشعبية نبعاً لا ينضب يستلهم الأدب الإسباني منه الحقيقة والعمق.

والتقاليد، وهي هامة دائماً، تتحول لدى بعض المؤلفين إلى المصدر الأساس لأفكارهم الشعرية؛ وهو ما يتغذى به الفن ويمدّه بالحياة وبالازدهار. وهذه هي الحال مع فيديريكو غارثيا لوركا، الذي نجد عناصر الموروث الشعبي حاضرة في أعماله (النثرية والشعرية)، ليس

¹ Manuel Vivero أكاديمي وباحث مسرحي مكسيكي. - المترجم -

فقط عبر الألفاظ، والألوان، والموسيقا؛ بل في أساس العمل نفسه، كجوهر، وكوحدة من القوى الدافعة، الهامة، للإبداع. في شعر لوركا، الذي ينعكس فيه الموروث الشعبي من خلال ما هو أندلسي، يقول "أنخل فالبوينا برات": "هناك تطابق هائل بين ما هو غجري والكثافة الشعرية". وأكثر من ذلك، فإن ما هو غجري يتمركز في عمق الحالة الشعرية. ونجده، بخاصة، في القصائد الغنائية القصصية، حيث يجري إنتاج الأساطير كما في قصيدة "أنطونيو إلكامبوريو".

إن المواضيع الأساسية للشاعر: الحب، والعمل، والأسرة، والخصوصية، لديها دائماً، كأساس، عناصر الموروث الشعبي، وكثيراً ما تتحول إلى قوى متجذرة بالأرض، ولا يمكن تفسيرها إلا عبر تحليل التقاليد والمجتمع.

التقاليد، وانقياد الإنسان نحو مصير يتسم بالأعراف، والقيم الأخلاقية للعلاقات الاجتماعية التي لها جذور موهلة في القدم والتي تبرز باتجاه الحاضر عبر غنى عاطفي وأخلاقي لا محدود؛ تمثل عنصراً تراجيدياً وحيوياً في الوقت ذاته، وتتحول إلى مرآة تعكس ما في أعماق البنى الدرامية التي تقدمها.

هذا الانتشار الشعبي، وهذه الاستعادة لأهمية القوة الشعرية للتقاليد، حاضران في أعمال غارثيا لوركا بدرجة فائقة من الإتقان. وتجري تنقية العناصر الشعبية من خلال روح صافية وشفافة ومثقة؛ لكن من غير

أن يُفقدنا ذلك قوتها الحيوية. - وربما أن هذا هو أحد العناصر الأكثر أهمية وأصالة لدى هذا المبدع. - والإتقان الشعري لا يمكن أن تتحول غنائيته، بأية حال من الأحوال، إلى أعمال رفيعة، وتتعلز بسبب ذلك عن شعبيتها وتخسر الحقيقة. والأمر نفسه يحدث مع العمل الدرامي؛ فالشخصيات، والأحداث، والمواضيع التي تسبب المواقف الدرامية، وحيوية الفعل المنطلقة، هي شعبية بلا حدود. إن الذوق الجيد، والرقّة والحساسية، ولو كانت هذه في غاية البساطة، (ولا يعني ذلك أنها أقل إتقاناً)، والأخلاق التي تشكّل أيضاً عنصراً يرتقي بجميع الشخصيات؛ جميع هذه الأمور حاضرة بصورة دائمة.

الحقيقة الأكثر قسوة، تتلازم مع الرمزية الأكثر شعرية، مع اللاواقعية الأكثر طغياناً. وعلى سبيل المثال، فالقمر يتحول إلى شخصية حلم، إلى جانب شخصيات أخرى حية وحقيقية؛ وهي إنسانية ليس فقط بسبب مشاعرها وفعلها، بل وأيضاً لأنها جزء حي من أرضها وناسها.

في مقال نُشر في شهر كانون الأول عام ١٩٣٤، قدّم لوركا أسساً سلطت الضوء على أمور أساسية ذات علاقة مع فكرته عما يجب أن يكون عليه المسرح.

قال: "المسرح هو الشعر الذي ينهض من الكتاب ويتحول إلى بشر. من الضروري أن تظهر الشخصيات على المسرح وهي ترتدي أردية من الشعر، وفي الوقت نفسه أن تظهر من لحم ودم، وأن تكون تراجيدية بصورة واضحة ومتصلة بالحياة وبالزمن، ولديها الطاقة لأن

تُري تقاليدها، التي تعبّر عن قيمها، وأن تخرج من بين شفاهها كل شجاعة كلماتها، ممتلئة بالحب أو بالكراهية".

الواقعية، التقاليد، الشعر؛ هي القيم الجمالية الرئيسة لمفهومه، والتي تحققت، فعلاً، في أعماله.

لا شك في أن المسرح هو نتاج نضج الشاعر، وهو يدل، في الوقت نفسه، على قوة خلق كبيرة، سواء فيما يتعلق بالبناء الشكلي، أم فيما عليه أن يتضمنه من أعماق سيكولوجية. ولا شك في أنّ العمل الدرامي يعلو كثيراً على الشعري.

مسرحية "بيت بيرناردا ألبا"، من ناحية بنائها الشكلي، تتميز كثيراً عن الأعمال المسرحية الأخرى لغارثيا لوركا. العناصر الدرامية في هذه المسرحية وصلت إلى حدود متقدمة جداً من قوة الحضور والتأثير، في إطار إيقاع درامي استطاع أن يضبط كل شيء.

في "بيرما"، يتوازن الدرامي مع الشعري، وعلى الرغم من أن الأول هو المسيطر، فإن العناصر الشعرية لها أهمية كبرى.

لكن، كوحدة من التوازن الفني بين غنى المواضيع، والحقيقة الدرامية التي تنقلها الشخصيات، والإيقاع الذي يتطور من خلاله الفعل التراجيدي، ربما أن "أعراس الدم" هو العمل الدرامي الأكثر نجاحاً بين أعمال فيديريكو غارثيا لوركا.

"أعراس الدم" صراع بين الحب كقوة مسيطرة فرضتها الطبيعة، وتعاليم الحياة التي تفرضها التقاليد. هذا الصراع موجود في إسبانيا، لكنّ

المسببات التي تقود إليه، بطبيعته التراجيدية، يمكن أن تأخذ سمات تتجاوز، بصورة عامة، المجال الإسباني. من هذه الناحية تبدو هذه الدراما ذات طبيعة عالمية، ومن هنا تحقق لهذا العمل نجاح في مختلف أرجاء العالم. يجب أن نضيف هنا سبباً سيكولوجياً ذا طابع شخصي لدى المؤلف، سواء في رؤية الطبيعة التراجيدية للحب (الموضوع الذي لا تتفرد به مسرحية أعراس الدم. فحالات الحب غير المُشَبَّعة التي تتحول إلى حالات حب مستحيل نجدها دائماً في الأعمال الدرامية للوركا؛ وكذلك؛ لو تأملنا جيداً في أعماله الشعرية، لوجدناها مملأى بالحب المحبَّب)؛ أم في رؤيته التشاؤمية للعلاقات الاجتماعية التي تخص شخصياته.

المصير التراجيدي للشخصيات، بصورة عامة،- التي تتحرك في فضاء العمل وتطبعه بمجمله -، لا يرتبط هنا، كما هي الحال في التراجيديا اليونانية، بإرادة الآلهة، بل نجد للقوى التي تحدد التطور والحل، الطاقة ذاتها، كما أنّ النتائج المشؤومة تبدو معلنة منذ البداية.

في أعراس الدم، يُقدِّم الصراع عبر مسار الإحباط المزدوج للحب لدى رجلين وامرأة تبدو مدفوعة باتجاه أحدهما وكذلك باتجاه الآخر؛ بسبب الطبيعة، حيث يأخذ شكل حب لا يقاوم؛ ومراعاةً للواجب الأخلاقي الذي يفرضه المجتمع.

بدءاً من اللوحة الثانية في الفصل الأول (يتكون العمل من ثلاثة فصول تضم سبع لوحات)، يتطور الصراع بين الحيين بصورة متوازنة، بتصعيد لا يتوقف، كما أن ذروته التراجيدية تتضح منذ البداية.

جميع المواضيع التي تتضمنها أعمال لوركا، حاضرة في "أعراس الدم"، وتطل بمنظورها العميق على الموضوع الرئيس.

الموت، الذي يأتي في الفصل الثالث، في مثال متميز جداً للاستعارة الدرامية، يتجسد بمتسولة عجوز (لها مساعد يتمثل بالقمر، القوة المتجمدة، الذي يريد أن يتدفق بدم أبطال العمل)، حاضر منذ البداية، منذ الكلمات الأولى للفصل الأول؛ وهو يظهر لكي يستمر، لأن أعراس الدم تراجيديا لا تتوقف. عندما لا يكون هناك حديث عن الموت، نحس بأنه قريب، وسرعان ما تتشكل لدينا القناعة لدى القراءة بأنه سيكون شخصية رئيسة في مسار العمل.

إذا كان هذا المعنى التراجيدي للحياة، ولمظاهرها الرئيسة، كالحب، يرتبط بالتقاليد الإسبانية (التقاليد في الحياة، وكذلك في الفن)، فهو لدى غارثيا لوركا، معرّف بصورة جلية عبر دافع خاص به، يشد كل العلاقات بين الشخصيات.

عناصر التراجيديا، وقيمها الأخلاقية، تتمثل عبر بعض الشخصيات: بوالدة الخطيب، التي تحيا من أجل ابنها الوحيد الذي بقي لها، لكن بصرامة اجتماعية تقليدية. في نهاية الفصل الثاني، بعد العرس، وقبل إتمام الزواج، عندما تهرب زوجة ابنها مع رجل آخر، يبرز عنصر

تراجيدي أكبر من مصيبة تخلي هذه الخطيية؛ إذ نجد غضب الأم البالغ، في الوقت نفسه، مسيطراً عليه بطريقة تراجيديية بسبب كون إجراءات الزفاف قد تمت.

تقول لوالد الخطيية:

"... ابنتك، نبتةٌ لأم سيئة،

لكنها أصبحت الآن زوجة ابني!"

ثم تصرخ مطالبة بالتأثر، وبطريقة عنيفة تذكرنا بشيكسبير:

"... من لديه حصان هنا؛

من لديه حصان؟ وسأعطيه كل ما أملك،

عيني وحتى لساني."

وبعد قليل، تصرخ مرة أخرى:

"لكنها الآن أصبحت زوجة ابني.."

وأيضاً والد الخطيية، ذو المظهر السلبي؛ فهو رجل يستغرق حياته بالكامل تفرغه للاهتمام بأملاكه. حتى أن زواج ابنته أيضاً لم يكن يعني بالنسبة إليه سوى التفكير بزيادة هذه الأملاك، ولم يكن لديه، في أية لحظة، حماسة لأي أمر لا يتصل بتحسين وضعه المالي.

والحب، بين الخطيية والرجل الذي هربت معه، له ماضٍ من خطوبة بين الاثنين، والزواج لم يتم لأن الشاب كان فقيراً. وهو ظرف يحدث في

المجتمع الإسباني (وفي كل المجتمعات الأخرى، بدرجة أكثر أو أقل) وهو ما يؤدي إلى انتهاء العلاقة وإحباط الحب بين شابين. العمل، كقيمة أخلاقية متجذرة بعمق في تقاليد الإنسان الإسباني وفي وعيه، هو أمر ماثل هنا منذ البداية. الطهر، ليس هو فقط قيمة أخلاقية ترتبط بالجنس، ولا يقتصر على المرأة، التي يعد طهرها مسألة لا تساهل فيها. عندما تذهب الأم لإتمام عرس ابنها، تقول لوالد الخطيبة، وهي بصدد التعريف بمزايا الخطيب: "ابني رائع، لم يعرف امرأة في حياته، سمعته أنقى من ملاءة بيضاء تحت أشعة الشمس."

لكن النقاء والطهر يذهبان إلى ما هو أبعد من ذلك. فبين الحلويات والنيبذ، يتناول الخطيب قطعة حلوى، وعندما يقدم إليه والد الخطيبة كأس نيبذ، تقول الأم: "لا يشربه."

الشهوانية، سطوة الجنس، هي أيضاً من مواضيع هذا العمل (وهل بين أعمال غارثيا لوركا ما هو ليس كذلك؟)، وهي حاضرة لدى الجميع، الذين في مقتبل العمر، والمسنين. لدى ليوناردو، كقوة ضارية؛ ولدى الخطيبة، بطريقة أكثر مأساوية، لأن مقاومتها أمر لا جدوى منه. الجنس يظهر كقوة مبهمة ترتبط بالموت، لكنّها قوة طبيعية، أرضية.

كل ما هو شهواني يزداد حضوراً واتساعاً عبر الطاقة الشعرية لغارثيا لوركا.

تقول الخطيبة لوالدة الخطيب:

"... ذهبتُ مع الآخر، ذهبتُ!.."

كنت امرأة تحترق، تملؤني القروح

من الداخل ومن الخارج،

وابنك كان مثل القليل من الماء،

الذي كنت انتظر منه الأبناء، والأرض، والصحة؛

لكن الآخر كان نهراً غامضاً،

مليئاً بالأغصان، كان يقرب مني وشوشات أسله،

وغناه من بين أسنانه."

والظهر:

"كان ابنك غايتي، وأنا لم أخدعه.."

وسطوة الجنس بخاصة:

"لكنّ ذراع الآخر جرفتني كموجة..."

وكانت ستجرفني دائماً، دائماً،

ولو أصبحت عجوزاً،

وكل أبناء ابنك يشدونني من شعري.."

إذا نحننا جانباً هتافات الأعراس، التي كُتبت بأفضل تقاليد الشعر الإسباني، وتحمل فرح الشعب، الفطري، والقوي، والبسيط؛ فإنّ ما يتبقّى من هذا العمل هو دراما لا تتوقف.

بلغة مقتضبة، محمّلة بدلالات جوهريّة، يقدم لنا غارثيا لوركا في "أعراس الدم" لوحة عميقة للريف الإيبيري، بناسه، وتقاليدّه، وأساليب حياته؛ في عمل ذي قوة درامية، تمتلك القدرة على الاستمرار حيّة، للقراءة كما على المسرح.

أعراس الدم'

تراجيديا في ثلاثة فصول وسبع لوحات

(١٩٣٣)

' الترجمة الصحيحة للعنوان Bodas de sangre هي "أعراس الدم"، لا "عرس الدم" وفق ما جرت عليه ترجمات أخرى كثيرة. - المترجم -.

الشخصيات

الأم

الخطيبة

الحماة

زوجة ليوناردو

الخادمة

الجارّة

فتيات

ليوناردو

الخطيب

والد الخطيبة

القمر

الموت (كمتسوّلة)

حطّابون

شبان

الفصل الأول

اللوحه الأولى

(غرفة مطليه باللون الأصفر)

الخطيب (وهو يدخل):

- أمي.

الأم:

- ماذا؟

الخطيب:

- أنا ذاهب.

الأم:

- إلى أين؟

الخطيب:

- إلى الكرم (بهم بالخروج).

الأم:

- انتظر.

الخطيب:

- أتريدين شيئاً؟

الأم:

- ابني، الغداء.

الخطيب:

- لا ضرورة له، سأكل عنياً. أعطني السكين.

الأم:

- لماذا؟

الخطيب (ضاحكاً):

- من أجل قطعه.

الأم (من بين أسنانها وهي تبحث عن السكين):

- السكين، السكين... لعنة الله عليها جميعاً وعلى الوغد الذي

اخترعها.

الخطيب:

- فلننتقل إلى موضوع آخر.

الأم:

- والبنادق والمسدسات وأصغر سكين، وحتى الفؤوس ومذراة البيدر.

الخطيب:

- طيب.

الأم:

- كل ما يمكنه أن يقطع جسد رجل. رجل جميل، وفي فمه زهرة، وهو

خارج إلى الكروم، أو ذاهب إلى أرض زيتونه، لأنها له، ورثها..

الخطيب (وهو يخفض رأسه):

- فلتصمتي.

الأم:

-... وهذا الرجل لا يعود. أو إذا عاد فذلك كي نضع له سَعْفَةً أو
صحناً من الملح الخشن كيلاً يتتنفّخ. لا أدري كيف تجرؤ على حمل
سكين في جسدك، ولا كيف أترك أنا الأفعى داخل الصندوق.

الخطيب:

- ألا يكفي هذا؟

الأم:

- لوعشتُ مائة سنة، لن أتكلم عن شيء آخر. في البداية أبوك؛ الذي
عشت معه وأنا أتتشق رائحة القرنفل، لكن ذلك لم يدم سوى ثلاث
سنوات. ثم أخوك. وهل من العدل أن شيئاً صغيراً مثل مسدس أو
سكين يمكن أن ينهي حياة رجل هو كالثور؟ لن أسكت أبداً. تمر
الشهور واليأس يخترق عينيّ وحتى أطراف شعري.

الخطيب (بحزم):

- ألن ننتهي؟

الأم:

- لا. لن ننتهي. هل يستطيع أحد أن يرد لي أباك؟ وأخاك؟ ثم سجن
الأشغال الشاقة.. ماهو سجن الأشغال الشاقة؟ هناك يأكلون، هناك
يدخنون، هناك يعزفون على الآلات الموسيقية! ميثاي يملؤهما العشب،

لا يتكلمان، تحوّلًا إلى تراب؛ رجلا كانا نبتتي عطر.. القتل، في السجن، مبهجون، يتأملون الجبال...

الخطيب:

- هل تريدني مني أن أمضي فأقتلهم؟

الأم:

- لا.. إذا كنتُ أتكلم، فلأنتي... كيف لا أتكلم وأنا أراك تخرج من هذا الباب؟ لأنتي لا أريدك أن تحمل سكيناً، لأنتي.. لأنتي لا أريدك أن تخرج إلى الحقل.

الخطيب (ضاحكاً):

- دعينا من هذا!

الأم:

- كم كنت أتمنى لو أنك امرأة. لما كنت الآن تذهب إلى الساقية، ولجلسنا نطرز معاً في اللوحتين القماشيتين وفي الجراء الصوفية.

الخطيب (وهو يطوق الأم بذراعه ضاحكاً):

- أمي، وإذا أخذتك معي إلى الكرم؟

الأم:

- ماذا ستفعل امرأة عجوز في الكرم؟ ستأخذني لتضعني تحت الأغصان؟

الخطيب (يرفعها بين ذراعيه):

- عجوز، عجوزي، يا عجوزي.

الأم:

- كان أبوك يأخذني معه. هذه هي السلالة الطيبة. الدم. جدك ترك

ابناً في كل زاوية. هذا ما يعجبني. الرجال، رجال؛ القمح، قمح.

الخطيب:

- أمي، وأنا؟

الأم:

- أنت، ماذا؟

الخطيب:

- هل أحتاج لأن أقولها مرة أخرى؟

الأم (جادة):

- آها!

الخطيب:

- هل ترين الأمر سيّئاً؟

الأم:

- لا.

الخطيب:

- فإذاً؟..

الأم:

- لا أعرف. هكذا، فجأة، دائماً يفاجئني هذا الأمر. أنا أعرف أن الفتاة طيبة. أليس كذلك؟ مهذبة. شغيلة. تعجن خبزها وتخييط ثيابها، وأحس، مع ذلك، عندما أذكر اسمها، كما لو أن هناك من يضرني بحجر على جبیني.

الخطيب:

- أوهاام.

الأم:

- لا.. لأنني سأبقى وحيدة. لم يتبقَّ لي غيرك وأشعر أنك ذاهب.

الخطيب:

- لكّك ستأتين معنا.

الأم:

- لا. لا أستطيع أن أترك هنا أباك وأخاك وحيدین. عليّ أن أذهب إليهما كل صباح، وإذا ما ابتعدت، فقد يموت أحد من عائلة فيليكس، واحد من عائلة القتلة، ويدفن بجوارهما. وهذا لن يحصل أبداً! لن يحصل أبداً! لأنني بأظفري سأخرجه من القبر وبمفردی سأسحقه بالسور.

الخطيب (بصوت قوي):

- عدنا مرّة أخرى.

الأم:

- اعذرنی. (صمت) كم من الوقت مضى على علاقتكما؟

الخطيب:

- ثلاث سنوات. استطعت خلالها شراء الكرم.

الأم:

- ثلاث سنوات. كان لها خطيب من قبل. أليس كذلك؟

الخطيب:

- لا أعرف. لا أظن. الفتيات يدقن في مسألة من سيتزوجن.

الأم:

- بلى.. أنا لم أدقق في اختيار أحد. نظرت إلى أبيك. وعندما قتلوه

أصبحت أنظر إلى الحائط الذي أمامي. امرأة مع رجل واحد، وانتهى.

الخطيب:

- أنتِ تعلمين أن خطيبي فتاة جيدة.

الأم:

- لا أشك في هذا. في كل الأحوال أشعر بأني لا أعرف كيف كانت

أمها.

الخطيب:

- ما أهمية ذلك؟

الأم (وهي تنظر إليه):

- ابني.

الخطيب:

- ماذا؟

الأم:

- هذا صحيح! أنت على حق! متى تريد أن أطلبها؟

الخطيب (فرحاً):

- هل ترين أن يوم الأحد هو موعدٌ ملائمٌ؟

الأم (بوجه جاد):

- أنا أحضر لها أقراط النحاس الأصفر، وهي قديمة، وأنت تشتري

لها...

الخطيب:

- أنتِ لديك خبرة أفضل...

الأم:

- تشتري لها بعض الجوارب المطرزة، ولك بدلتان!.. ثلاث! فأنا ليس

لي أحد سواك.

الخطيب:

- أنا ذاهب. غداً سألتقيها.

الأم:

- أجل، أجل؛ وسأرى ما إذا كنت ستفرحني بستة أحفاد، أو بما تتمناه

أنت، فأبوك لم تسمح له الظروف بأن يحقق لي ذلك.

الخطيب:

- الأول لك.

الأم:

- أجل، لكن أتمنى أن تُرزق بالبنات، لأنني أحب التطريز والزخرفة وأن أكون مرتاحة.

الخطيب:

- أنا واثق من أنك ستحبين خطيبي.

الأم: سأحبها. (تهم بتقبيله ثم تمسك نفسها عن ذلك). امش، لقد أصبحت كبيراً جداً على القبلات. ستعطيها لزوجتك. (صمت. ثم كما لو أنها تحدث نفسها) عندما تصبح كذلك.

الخطيب:

- أنا ذاهب.

الأم: قلب جيداً الأرض القريبة من الطاحونة الصغيرة، فإنك تهملها.

الخطيب:

- حاضر.

الأم:

- امش والرب معك. (يذهب الخطيب. وتبقى الأم جالسة وهي تستند بظهرها إلى الباب. تظهر بالباب إحدى الجارات وهي ترتدي ثياباً داكنة، وتضع منديلاً على رأسها). تفضلني.

الجارّة:

- كيف حالك؟

الأم:

- كما ترى.

الجارّة:

- نزلت إلى الدكان وجئت لأراك. نسكن بعيداً جداً!

الأم:

- منذ عشرين سنة لم أصعد حتى نهاية الشارع.

الجارّة:

- أنت في حالة جيدة.

الأم:

- أتعقدين ذلك؟

الجارّة:

- الأمور تمضي. منذ يومين جاؤوا بابن جاري وقد قطعت الآلة

ذراعيه. (تجلس).

الأم:

- رافائيل؟

الجارّة:

- أجل. وكثيراً ما أفكر بأن ابنك وابني أصبحا في وضع أفضل حيث

هما، إنهما ينامان مطمئنين، ليسا معرضين لأن يصبحا معوقين.

الأم:

- اسكتي. كل هذا مجرد هراء، وليس فيه أي عزاء.

الجارّة:

- آه!

الأم:

- آه!

(صمت).

الجارّة (بحزن):

- وابنك؟

الأم:

- خرج.

الجارّة:

- أخيراً اشترى الكرم!

الأم:

- حالفه الحظ.

الجارّة:

- الآن سيتزوج.

الأم (تتنبّه، تقرب كرسيها من كرسي الجارّة).

- اسمعي.

الجارّة (وهي تنهياً للاستماع إلى حديث سرّي):

- قل لي.

الأم:

- هل تعرفين خطيبة ابني؟

الجارّة:

- فتاة طيبة!

الأم:

- صحيح، لكن...

الجارّة:

- لكن من الذي يعرف ما في أعماقها، لا أحد. تعيش وحيدة مع والدها هناك، بعيداً جداً، على مسافة عشرة فراسخ^١ من أقرب بيت. لكنها طيبة، وتعودت العزلة.

الأم:

- وأمها؟

الجارّة:

- أنا أعرف أمها. جميلة. وجهها يضيء مثل قديس؛ لكنّها لم تعجبني أبداً. لم تكن تحب زوجها.

الأم (بحدة):

- لكن! ما أكثر ما يعرفه الناس!

الجارّة:

- معذرة. لم أقصد الإساءة؛ لكنها الحقيقة. ثم، هل كانت محتشمة أم لا، لم يتحدث بذلك أحد. كانت متعجرفة.

الأم:

^١ - في النص الأصلي Leguas ومفردتها Legua أي فرسخ وهو مقياس من مقاييس الطول يُقَدَّر بثلاثة أميال. وقيل أيضاً إنه ستة. - المترجم -.

- دائماً الشيء نفسه!

الجارّة:

- أنتِ سألتني.

الأم:

-كنت أتمنى لو أن أحداً لا يعرفهما؛ لا المتوقّاة منهما ولا الحيّة. وأن تكونا مثل عوسجتين، لا ينطق باسمهما إنسان، لكنهما تخزان عندما تدعو الضرورة.

الجارّة:

- أنت على حق. ابنك يساوي الكثير.

الأم:

- أجل. لهذا أحافظ عليه. لقد قيل لي إنه كان للفتاة خطيب.

الجارّة:

- كانت في الخامسة عشرة. وهو تزوج منذ عامين، من ابنة عم لها. لم يعد أحد يذكر شيئاً عن تلك الخطوبة.

الأم:

- وكيف تتذكّرينها أنتِ؟

الجارّة:

- أراك توجهين إليّ الأسئلة!

الأم:

- كل ممّا يريد أن يطّلع على ما يشغله. من كان الخطيب؟

الجارّة:

- ليوناردو.

الأم:

- أي ليوناردو؟

الجارّة:

- ليوناردو ابن عائلة فيليكس.

الأم (تنتفض):

- ابن عائلة فيليكس!

الجارّة:

- يا امرأة، أي ذنب ارتكبه ليوناردو؟ كان ما يزال في الثامنة من عمره عندما حدث ما حدث.

الأم:

- هذا صحيح... لكنّ عندما اسمع اسم "فيليكس" (من بين أسنانها) وهو الفيليكس نفسه، أشعر بأنّ فمي يمتلئ بالوحل (تبصق) وعليّ أن أبصق، عليّ أن أبصق كي لا أقتل.

الجارّة

- اهدئي؛ ما الذي يعيدك إلى هذا؟

الأم:

- لا شيء. لكنك تفهمين ذلك.

الجارّة:

- لا تقفي أمام سعادة ابنك. لا تقولي له شيئاً. أنت أصبحت امرأة مسنة. وأنا أيضاً. أنت وأنا علينا التزام الصمت.

الأم:

- لن أقول له شيئاً.

الجارّة (تقبّلها):

- ولا أي شيء.

الأم (بهدهوء):

- هذه الأمور!...

الجارّة:

- أنا ذاهبة، اقترب موعد وصول جماعتي من الحقل.

الأم:

- رأيت كم الطقس حارّ هذا اليوم؟

الجارّة:

- الأولاد الذين يجلبون الماء للحصّادين يعودون وقد اسودّ لونها.

وداعاً، يا امرأة.

الأم:

- وداعاً.

(تتجه الأم نحو الباب الأيسر. وفي منتصف طريقها تتوقف وترسم

على صدرها، ببطء، إشارة الصليب).

ستارة

اللوحة الثانية

غرفة مطلية باللون الوردي. أوانٍ نحاسية وباقات زهور. في الوسط
طاولة عليها غطاء. الوقت صباح.

(حماة ليوناردو تحمل طفلاً بين ذراعيها. تهدهده. زوجة ليوناردو في
الزاوية الأخرى، تحيك جورباً).

الحماة:

نانا، يا طفل، نانا

الحصان الكبير

لم يرغب في الماء.

كان الماء أسود

بين الأغصان.

عندما يصل إلى الجسر

يتوقف ويغني.

من الذي يدري، يا طفلي،

ماذا يحوي الماء،

بذيله الطويل

عبر بساطه الأخضر؟

الزوجة: (بصوت خفيض):

نَمْ، أيها القرنفل،

فالحصان لا يريد أن يشرب

الحماة:

نَمْ، يا نبتة الورد،

فالحصان بدأ يبكي.

القوائم جريحة،

العرف متجمّد،

وفي العينين

خنجرٌ من فضة.

هبطوا إلى النهر.

آه، كيف هبطوا!

الدم يجري

أكثر غزارةً من الماء.

الزوجة:

نَمْ، أيها القرنفل،

فالحصان لا يريد أن يشرب.

الحماة:

نَمْ، يا نبتة الورد

فالحصان بدأ يبكي.

الزوجة:
لم يرغب في أن يلمس
الضفة المبللة،
جحفلته الحارة
عليها ذبابات من فضة.
في الجبال الوعرة
كان يصهل
مع النهر الميت
عند المضيق.
آه أيها الحصان الكبير
الذي لم يرغب في الماء!
آه يا ألم الثلج،
يا حصان الفجر!
الحماة:
لا تأتِ! توقّف،
أغلق النافذة
بغصنٍ من أحلام
وحلمٍ من أغصان.
الزوجة:
طفلي ينام.

الحماة:

طفلي يصمت.

الزوجة:

أيها الحصان، طفلي

لديه وسادة.

الحماة:

مهده من فولاذ.

الزوجة:

لحافه من هولندا

الحماة:

نانا، يا طفل، نانا.

الزوجة:

آه أيها الحصان الكبير

الذي لم يرغب في الماء!

الحماة:

لا تأتِ، لا تدخل!

اذهب إلى الجبل

عبر الوديان الرمادية

حيث هي المُهَرَّة.

الزوجة (وهي تنظر):

طفلي ينام.

الحماة:

طفلي يرتاح.

الزوجة (بصوت خفيض):

نَمْ، أيها القرنفل،

فالحصان لا يريد أن يشرب.

الحماة (تنهض وبصوت خفيض جداً):

نَمْ، يا نبتة الورد،

فالحصان بدأ يبكي.

(تُدخل الطفل. يدخل ليوناردو)

ليوناردو:

- والطفل؟

الزوجة:

- نام.

ليوناردو:

- البارحة لم يكن بحالة جيدة. بكى خلال الليل.

الزوجة (فرحة):

- اليوم هو مثل زهرة الأضاليا. وأنت؟ هل ذهبت إلى البيطري؟

ليوناردو:

- أنا آتٍ من هناك. هل تصدّقين؟ منذ أكثر من شهرين وأنا أضع
النّعال الحديدية الجديدة لحوافر الحصان ولا تلبث أن تقع. يبدو أنها
تنخلع بسبب الأحجار.

الزوجة:

- أليس ذلك بسبب أنك تمتطيه كثيراً؟

ليوناردو:

- لا. فأنا أكاد لا أمتطيه.

الزوجة:

- البارحة قالت لي الجارات أنهن قد شاهدنك عند أطراف السهول.

ليوناردو:

- من قال هذا؟

الزوجة:

- النسوة اللواتي كنّ يجمعن الكبّر. لقد فاجأني ذلك. هل كنت أنت؟

ليوناردو:

- لا. ما الذي سأفعله هناك، في تلك الأرض البور؟

الزوجة:

- هذا هو ما قلّته. لكن الحصان كان يتصبب عرقاً.

ليوناردو:

- هل شاهدته أنت؟

الزوجة:

- لا. أمي.

ليوناردو:

- هل هي مع الطفل؟

الزوجة:

- أجل. هل تريد عصير الليمون؟

ليوناردو:

- بالماء المبرّد جيداً.

الزوجة:

- لماذا لم تأتِ لتناول الطعام؟

ليوناردو:

- كنت مع كيّالي القمح. دائماً يتسببون في تأخيري.

الزوجة(خلال قيامها بإعداد العصير، ويكثر من اللطف):

- وهل يدفعون أسعاراً جيدة؟

ليوناردو:

- السعر الملائم.

الزوجة:

- أنا بحاجة إلى فستان، وللطفل قبعة برباط.

ليوناردو (ينهض):

- أنا ذاهب لرؤيته.

الزوجة:

- انتبه، فهو نائم.

الحماة (خارجة):

- لكن، من الذي يجعل الحصان يعدو كل هذه المسافات؟ إنه يحتضر، عيانه تكادان تخرجان من محجريهما وكأنه قادم من آخر الدنيا.

ليوناردو (بغيظ):

- أنا.

الحماة:

- معذرة؛ فهو حصانك.

المرأة (بخوف):

- كان مع كيالي القمح.

الحماة:

- من ناحيتي، فلينفق (تجلس . صمت).

الزوجة:

- الشراب... هل هو بارد؟

ليوناردو:

- أجل.

الزوجة:

- أتعلم أنهم يخطبون ابنة عمي؟

ليوناردو:

- متى؟

الزوجة:

- غداً. سيكون العرس خلال شهر. أتوقع أن يأتوا لدعوتنا.

ليوناردو (برصانة):

- لا أعرف.

الحماة:

- أعتقد أن أمه لم تكن مرتاحة لهذا الزواج.

ليوناردو:

- وربما كانت على حق. فهي تستدعي الحذر.

الزوجة:

- لا يعجبني أن تسيء الظن بفتاة طيبة.

الحماة:

- لكن عندما يقول هذا فلأنه يعرفها. فقد كان خطيبها مدة ثلاث

سنوات؟ (غامزة من الأمر).

ليوناردو:

- لكنني تركتها. (لزوجته) هل ستبكين الآن؟ لا داعي! (يبعد لها يديها

عن وجهها بفضاظة). تعالي لنرى الطفل.

(يدخلان متعانقين. تظهر فتاة، فرحة، تدخل وهي تجري).

الفتاة:

- سيدتي.

الحماة:

- ماذا جرى؟

الفتاة:

- جاء الخطيب إلى الدكان واشترى أفضل ما كان موجوداً فيه.

الحماة:

- جاء لوحده؟

الفتاة:

- لا، مع والدته. جديّة، طويلة. (تقلّدها). لكنّ أيُّ بذخ!

الحماة:

- لديهم المال.

الفتاة:

- واشترى جوارب مطرّزة!... آه، أية جوارب! التي تحلم بها النساء!
انظري حضرتك: سنونوة هنا (وتشير إلى الكعب)، وسفينة هنا (تشير إلى الساق)، وهنا وردة، (وتشير إلى الفخذ).

الحماة:

- يا بنت!

الفتاة:

- وردة مع بذورها وساقها! آه! وكل هذا من الحرير!

الحماة:

- سيجمعون ما بين ثروتين كبيرتين. (يظهر ليوناردو وزوجته).

الفتاة:

- جئت لأحكي لكم عما اشترياه.

ليوناردو (بحزم).

- هذا لا يهمنا.

الزوجة:

- دعها.

الحماة:

- ليوناردو، لا داعي لهذا.

الفتاة:

- أرجو المعذرة. (تخرج باكياً).

الحماة:

- ما الضرورة للتعامل السيئ مع الناس؟

ليوناردو:

- لم أطلب رأيك (يجلس).

الحماة:

- حسنٌ.

(صمت).

الزوجة (لليوناردو):

- ماذا جرى لك؟ أية أفكار تثور داخل رأسك؟ لا تدعني هكذا من غير

أن أعرف شيئاً...

ليوناردو:
- هذا يكفي.
الزوجة:
- لا. أريدك أن تنظر إليّ وتقول لي.
ليوناردو:
- دعيني. (ينهض).
الزوجة:
- إلى أين؟
ليوناردو (باستياء):
- هل تستطيعين أن تسكتي؟
الحماة (لابنتها، بحزم):
- اسكتي! (يخرج ليوناردو). الطفل!
(تدخل وتعود حاملّة الطفل بين ذراعيها. تبقى الزوجة واقفة من غير
أية حركة).
القوائم جريحة،
العرف متجمد،
وفي العينين
خنجر من فضة.
هبطوا إلى النهر.
آه، كيف هبطوا!

الدم يجري
أكثر غزارة من الماء.
الزوجة (تتلقت ببطء وكأنها تحلم):
نَمْ، أيها القرنفل،
فالحصان بدأ يشرب.
الحماة:

نَمْ، يا نبتة الورد،
فالحصان بدأ يبكي.
الزوجة:

نَمْ، يا طفل، نَمْ.
الحماة:

آه أيها الحصان الكبير
الذي لم يرغب في الماء!
الزوجة (بتأثر):
لا تأتِ، لا تدخل!
اذهب إلى الجبل!
آه يا ألم الثلج،
يا حصان الفجر!
الحماة (باكية):
طفلي ينام...

الزوجة (باكية وهي تقترب ببطء):

طفلي يرتاح...

الحماة:

نَمْ، أيها القرنفل،

فالحصان لا يريد أن يشرب.

الزوجة (باكيةً وهي تستند إلى الطاولة):

نَمْ، يا نبتة الورد،

فالحصان بدأ يبكي.

ستارة

اللوحة الثالثة

داخل الكهف حيث تعيش الخطيبة. في العمق صليب من ورود كبيرة. الأبواب مستديرة، ذات ستائر مطرزة وأناشيط وردية اللون. على الجدران البيض والصلبة مراوح يد مستديرة وأباريق زرق ومرايا صغيرة.

الخادمة:

تفضلا.. (لطيفة جداً، بصورة طافحة بالرياء المتذلل. يدخل الخطيب ووالدته. الأم ترتدي ثوباً من الأطلس الأسود وتضع خماراً مطرّزاً. الخطيب، بالمخمل الأسود مع سلسلة ذهبية كبيرة). تفضلا حضرتكما بالجلوس؛ سيأتيان حالاً.

(تخرج).

تجلس الأم والابن، دون أية حركة وكأنهما تمثالان. فترة صمت طويلة.

الأم:

- هل أحضرت الساعة؟

الخطيب:

- أجل. (يخرجها ويتأملها).

الأم:

- علينا ألا نتأخر في العودة. ما أبعد مكان سكن هؤلاء الناس!

الخطيب:

- لكتّها أراضٍ جيدة.

الأم:

- جيدة؛ غير أنها منعزلة كثيراً. أربع ساعات على الطريق وليس هناك أي بيت ولا أية شجرة.

الخطيب:

- إنها الأراضى البور.

الأم:

- لو كان أبوك لكساها بالأشجار.

الخطيب:

- بلا ماء؟

الأم:

- لكان قد بحث عنه. السنوات الثلاث التي عشناها معاً، زرع عشر شجرات كرز. (تعود بها الذاكرة). ثلاث شجرات جوز في المعصرة، وكرم كامل ونبتة تدعى جوبيتر، ذات زهور حمراء... لقد ذبلت.
(صمت).

الخطيب (عن الخطيبة):

- لا بد وأنها تقوم بارتداء ملابسها.

يدخل والد الخطيبة: مسنّ، شعره أبيض يلتمع. رأسه منحني. تنهض الأم والخطيب ويمدان إليه يديهما بصمت.

الأب:

- استغرقت رحلتكما وقتاً طويلاً؟

الأم:

- أربع ساعات.

(يجلسون).

الأب:

- سلكتما الطريق الأطول.

الأم:

- لقد أصبحتُ في سن لا تسمح لي بسلوك طريق النهر الوعرة.

الخطيب:

- يصيبها بالدوار.

(صمت).

الأب:

- محصول الحُفَاء جيّد.

الخطيب:

- جيّد بالفعل.

الأب:

- في أيامي، لم تكن هذه الأرض تنتج الحُفَاء. كان من الضروري

معاقبته وحتى جعلها تكي، كي تعطينا شيئاً مفيداً.

الأم:

- لكنها الآن تعطي. لا داعي لأن تشتكي. أنا لم آتِ كي أطلب منك شيئاً.

الأب (وهو يبتسم):

- أنتِ أكثر غنى مني. الكروم تساوي الكثير من المال. كل غصن هو قطعة نقود فضية. ما آسف له هو أن الأراضي.. أتفهميني؟!... متباعدة. ما أتمناه هو أن يكون كل شيء متجمعاً. أحس بشوكة في قلبي بسبب بستان صغير يقع وسط أراضي، ولا يريدون بيعها لي، ولو بكل ذهب العالم.

الخطيب:

- هذا يحدث دائماً.

الأب:

- لو أن عشرين زوجاً من الثيران تستطيع أن تجلب كرومكِ إلى هنا، ونغرسها على سفح الجبل. إنه شيء مفرح!..

الأم:

- لماذا؟

الأب:

- ما أملكه أنا هو لها، وما تملكينه أنتِ هو له. لهذا السبب. كي نرى كل شيء متجمعاً. والتجمع أمر جميل!

الخطيب:

- وسيكون العمل أقلّ.

الأم:

- عندما أموت، تبيعون تلك وتشترون هنا بجواركم.

الأب:

البيّع، البيّع!، إه!؛ الشراء، يا ابنتي، شراء كل شيء. لو كنت قد رُزقت بأبناء لكنت قد اشتريت كل هذا الجبل حتى طرف الساقية. ولأنها ليست أرضاً جيدة؛ بالسواعد تصبح جيدة، ولأن الناس لا يمرون بها، فلن تُسرق ثمارك، وتستطيعين النوم باطمئنان.

(صمت).

الأم:

- أنت تعرف سبب مجيئي.

الأب:

- أجل.

الأم:

- وماذا؟

الأب:

- يبدو لي أن الأمر جيد. هما قد تحدثنا بذلك.

الأم:

- ابني يملك ويقدر.

الأب:

- وابنتي أيضاً.

الأم:

- ابني رائع. لم يعرف امرأة في حياته. سمعته أنقى من ملاءة بيضاء تحت أشعة الشمس.

الأب:

- وماذا أقول لك عن ابنتي. تقوم بتحضير العجين عند الثالثة. مع كوكب الزهرة. لا تثرثر أبداً، ناعمة كالصوف. تُجيد كل أنواع المطرقات وتستطيع أن تقطع حبلاً بأسنانها.

الأم:

- بارك الرب منزلك.

الأب:

- باركه الرب.

(تظهر الخادمة مع صينيتين. واحدة عليها كؤوس، والأخرى فيها حلويات).

الأم (لابنها):

- متى تريدان العرس؟

الخطيب:

- الخميس القادم.

الأب:

- اليوم الذي تكمل فيه اثنتين وعشرين سنة بالضبط.

الأم:

- اثنتان وعشرون سنة! هو عمر ابني الكبير لو عاش. كان سيعيش
حاراً ورجلاً كما كان، لو لم يخترع الرجال السكاكين.

الأب:

- لا يجب التفكير بهذا الأمر.

الأم:

- كل دقيقة. ضع يدك على صدرك.

الأب:

- فإذا الخميس. أليس كذلك؟

الخطيب:

- هو كذلك.

الأب:

- الخطيبان ونحن نذهب في السيارة حتى الكنيسة؛ فهي بعيدة جداً، أما
المشاركون فيذهبون في العربات وعلى المطايا التي ستأتي بهم.

الأم:

- اتفقنا.

(تمر الخادمة).

الأب:

- قولي لها إن بإمكانها الدخول. (للأم) سأكون مسروراً جداً بأن
تعجبك.

(تظهر الخطيبة بطريقة تتكأف فيها الحياء. يداها منسدلتان ورأسها مطأئي).

الأم:

- اقتربي. هل أنت سعيدة؟

الخطيبة:

- أجل. سيدتي.

الأب:

- لا داعي لهذا التكأف. بالنهاية، ستكون هي أمك.

الخطيبة:

- أنا سعيدة. وعندما أعربت عن موافقتي فلأنتني أرغب في ذلك.

الأم:

- بالطبع. (تلمس ذقنها). انظري إليّ.

الأب:

- كل شيء فيها يشبه زوجتي.

الأم:

- حقاً؟ ما أجمل نظرتها! أتعرفين ما هو الزواج يا بنيّة؟

الخطيبة (جادة):

- أعرف.

الأم:

- رجل وأولاد وغرفة عرضها ذراعان^١ لكل ما عدا ذلك.

الخطيبة:

- هل هناك شيء آخر؟

الأم:

- لا. أن يعيش الجميع، هذا! أن يعيشوا!

الخطيبة:

- سأعرف كيف أقوم بواجبي.

الأم:

- جئتكِ ببعض الهدايا.

الخطيبة:

- شكراً.

الأب:

- ألا نتناول شيئاً؟

الأم:

-أنا لا أريد. (للخطيب) وأنت؟

الخطيب:

- أنا سأخذ (يأخذ قطعة حلوى. الخطيبة تأخذ أخرى).

^١ - في الأصل الإسباني varas والمفرد vara أي "عصا"؛ والمعنى الآخر، وهو المقصود هنا طبعاً، لا مقابل له في اللغة العربية، وهو وحدة لقياس الطول تعادل ثلاثة وثمانين سنتيمتراً ونصف السنتيمتر. وقد اقترحتُ كلمة "ذراعين"، - ونحن مع نص للمسرح -، لأنها الأقرب، كوحدة للقياس، وبالتالي، وصولاً إلى المعنى المجازي المقصود. - المترجم -.

الأب (للخطيب):

- نبيذ؟

الأم:

- لا يشربه.

الأب:

- أفضل!

(صمت. الجميع ينهضون).

الخطيب (للخطيبة):

- سأتي غداً.

الخطيبة:

- في أية ساعة؟

الخطيب:

- في الخامسة.

الخطيبة:

- أنا في انتظارك.

الخطيب:

- عندما أبتعد عنك أشعر بالضيق، وكأنَّ غصة في حنجرتي.

الخطيبة:

- عندما تصبح زوجي لن تشعر بذلك أبداً.

الخطيب:

- وهذا ما أقوله أنا.

الأم:

- هيا. الشمس لا تنتظر. (للأب) هل نحن متفقون على كل شيء؟

الأب:

- متفقون.

الأم (للخادمة):

- وداعاً يا امرأة.

الخادمة:

- فلتذهبها بحفظ الله.

(الأم تقبل الخطيبة، ويخرجان بصمت).

الأم (عند الباب):

- وداعاً يا ابنتي. (الخطيبة تجيب بحركة من يدها).

الأب:

- سأخرج معكما.

(يخرجون).

الخادمة:

- كم أتحرق لرؤية الهدايا.

الخطيبة (بحدة):

- ابتعدي عنها.

الخادمة:

- آه، يا بنت، أريني إياها!

الخطيبة:

- لا أريد.

الخادمة:

- ولو حتى الجوارب. يقولون إنها كلها مطرزة. يا امرأة!

الخطيبة:

- قلت لك لا.

الخادمة:

- يا إلهي. وكما لو أنك غير راغبة في الزواج.

الخطيبة (وهي تعض على يدها من الغيظ):

- آي.

الخادمة:

- يا صبية، يا بنت، ماذا جرى لك؟ هل تأسفين لتخليك عن العيش

كملاكة؟ لاتفكري بأشياء مزعجة. هل هناك أسباب؟ ولا أي سبب. تعالي

نتفرج على الهدايا. (تتناول الصندوق).

الخطيبة (وهي تمسك بها من معصمها):

- اتركه.

الخادمة:

- آي، يا امرأة!

الخطيبة:

- قلتُ لك اتركه.

الخادمة:

- أنتِ قوية أكثر من رجل.

الخطيبة:

- ألم أقم بأعمال الرجال؟ ليتني كنت كذلك!

الخادمة:

- لا تتكلمي هكذا!

الخطيبة:

- قلت لك اسكتي. فلنتحدث في موضوع آخر.

(يأخذ الضوء بالانحسار عن المسرح. صمتٌ طويل).

الخادمة:

- هل سمعتِ الليلة الفائتة وقع حوافر حصان؟

الخطيبة:

- في أية ساعة؟

الخادمة:

- في الساعة الثالثة.

الخطيبة:

- ربما أنه حصان ضلّ عن قطيعه.

الخادمة:

- لا. كان يمتطيه فارس.

الخطيبة:

- كيف عرفتِ؟

الخادمة:

- لأتت رأيتته. كان واقفاً عند نافذتك. فوجئت كثيراً.

الخطيبة:

- هل يمكن أن يكون خطيبي؟ كان أحياناً يمرّ في مثل ذلك الوقت.

الخادمة:

- لا.

الخطيبة:

- أنتِ رأيتته؟

الخادمة:

- أجل.

الخطيبة:

- من كان؟

الخادمة:

- كان ليوناردو.

الخطيبة (بحدة):

- كذب! كذب! لماذا يأتي إلى هنا؟

الخادمة:

- لقد أتى.

الخطيبة:

- اسكتي! اللعنة على لسانك!

(تسمع جلبة حصان).

الخادمة. (تطل من النافذة):

- انظري، أطلّي. هل هذا هو؟

الخطيبة:

- هو!

ستارة سريعة

نهاية الفصل الأول

الفصل الثاني

اللوحة الأولى

بهو بيت الخطيبة. بوابة كبيرة في العمق. ليل. الخطيبة تظهر
بفستان أبيض ذي ثنيات كثيرة ويمتلئ بالتطريز، وسترة قصيرة
بيضاء، والذراعان عاريتان. الخادمة ترتدي ثياباً مماثلة.

الخادمة:

- سأكمل لك التمشيط هنا.

الخطيبة:

- لا يمكن البقاء هناك في الداخل، الحر شديد.

الخادمة:

- في هذه الأراضي لن يصبح الجو لطيفاً، حتى ولا في الفجر.
(تجلس الخطيبة على كرسي منخفض وتتنظر إلى نفسها في مرآة
صغيرة يدوية. الخادمة تواصل ترتيب شعرها).

الخطيبة:

- كانت أُمي من منطقة تكثر فيها الأشجار. من أرض طيبة.

الخادمة:

- وهكذا كانت فرحة!

الخطيبة:

- لكنها استهلكت هنا.

الخادمة:

- القدر.

الخطيبة:

- مثمنا نُستهلك جميعاً. الجدران مثل النار. آي! لا تشدّي كثيراً.

الخادمة:

- أريد أن أرتّب لك هذه الخصلة بصورة أفضل. أن أجعلها تتسدل فوق

جيبك. (تنظر الخطيبة في المرأة). ما أجملك! (تقبلها بشغف).

الخطيبة (بصورة حازمة):

- استمري في ترتيب شعري.

الخادمة (وهي تستمر في ترتيب شعرها):

- ما أسعدك لأنك ستعانقين رجلاً، وتقبّلينه، وتشعرين بجسده!

الخطيبة:

- اسكتي.

الخادمة:

- وأجمل شيء هو عندما تستيقظين وتشعرين به إلى جانبك وأنفاسه

تلامس كتفك، وكأنها ريش العندليب.

الخطيبة (بحدّة):

- ألا تريدين أن تسكتي؟

الخدمة:

- لكن يا بنت! العرس، ما هو العرس؟ العرس هو هذا ولا شيء آخر.
هل هو الحلويات؟ هل هو باقات الزهور؟ لا. هو سرير رائع ورجل
وامرأة.

الخطيبة:

- لا يجوز الحديث في هذا.

الخدمة:

- هذه مسألة أخرى. لكنه أمر ممتع!

الخطيبة:

- أو هو مرّ.

الخدمة:

- سأضع لك زهر البرتقال من هنا وحتى هنا، بحيث يبرز الإكليل فوق
التسريحة. (تجرب لها قوس الزهر).

الخطيبة (تنظر في المرأة):

- هاته. (تأخذ قوس الزهر، تتأمله، وتطرق رأسها، كئيبة).

الخدمة:

- ماذا؟

الخطيبة:

- دعيني

الخدمة:

ليس هذا وقت الحزن. (مشجعة) هات قوس الزهر. (الخطيبة ترمي به). ابنتي! أية عقوبة تسعين إليها بقذف القوس؟ ارفعي هذا الجبين! ألا تريدين أن تتزوجي؟ قولي. ما زال بإمكانك أن تتراجعى. (تنهض).

الخطيبة:

- إنها غيوم. غيوم وتمرّ؛ من الذي لا يتعرّض لذلك؟

الخادمة:

- هل تحبين خطيبك؟

الخطيبة:

- أحبه.

الخادمة:

- أجل، أجل، أنا متأكدة من هذا.

الخطيبة:

- لكنها خطوة هامة جداً.

الخادمة:

- لا بد من أن نخطوها.

الخطيبة:

- لقد التزمت بها.

الخادمة:

- سأضع لك الإكليل.

الخطيبة (تجلس):

- أسرعي، اقترب موعد وصولهم.

الخادمة:

- إنهم في طريقهم منذ ساعتين على الأقل.

الخطيبة:

- كم هي المسافة من هنا إلى الكنيسة؟

الخادمة:

- خمسة فراسخ عبر طريق الساقية، أما عبر الطريق الآخر فضعف ذلك.

(الخطيبة تنهض. والخادمة تفرح لرؤيتها).

لتستيقظ الخطيبة

صباح العرس.

ولتحمل أنهار العالم

إكليك!

الخطيبة (تبتسم):

- هيا.

الخادمة (تقبلها بحرارة وترقص حولها).

فلتستيقظ

مع غصن الغار

الأخضر المزهر.

فلتستيقظ

مع جذوع الغار

وأغصانه!

(يُسمع صوت مطرقة الباب).

الخطيبة:

- افتحي! إنهم ولا شك أول المدعوين.

تدخل. والخادمة تفتح الباب فتُفاجأ.

الخادمة:

- أنت؟

ليوناردو:

- أنا. صباح الخير.

الخادمة:

- الأول!

ليوناردو:

- ألسْتُ مدعواً؟

الخادمة:

- أجل.

ليوناردو:

- لهذا جئت.

الخادمة:

- وزوجتك؟

ليوناردو:

- أنا جئت على الحصان. وهي على الطريق، اقترب وصولها.

الخادمة:

- ألم تلتقي أحداً؟

ليوناردو:

- تجاوزتهم وأنا على الحصان.

الخادمة:

- ستقتل الحصان مع كل هذا الجري.

ليوناردو:

- عندما يموت، يكون قد مات!

(صمت).

الخادمة:

- اجلس. لم يستيقظ أحد بعد.

ليوناردو:

- والخطيبة؟

الخادمة:

- سأذهب الآن لمساعدتها في ارتداء ثيابها.

ليوناردو:

- الخطيبة! لا بد وأنها سعيدة!

الخدمة (تغير مجرى الحديث):

- والطفل؟

ليوناردو:

- أي طفل؟

الخدمة:

- ابنك.

ليوناردو (يتذكر وكأنه في حلم):

- آه!

الخدمة:

- هل سيأتون به؟

ليوناردو:

- لا.

(صمت. أصوات بعيدة جداً تغني).

الأصوات:

لتستيقظ الخطيبة

صباح العرس!

ليوناردو:

لتستيقظ الخطيبة

صباح العرس.

الخدمة:

- إنهم الناس. قادمون من بعيد.

ليوناردو (ينهض).

- ستضع الخطيبة إكليلاً كبيراً، أليس كذلك؟ لا يجب أن يكون كبيراً جداً. إذا كان أصغر قليلاً سيساعدها على الجلوس. هل أحضر

الخطيب زهر البرتقال الذي ستزيّن به صدرها؟

الخطيبة (تظهر في الدهليز بثوبها الأبيض، وتضع إكليل زهر

البرتقال):

- أجل أحضره.

الخادمة (بحدّة):

- لا تخرجي هكذا.

الخطيبة:

- وماذا يعنّيك في هذا؟ (بوجه متجهّم) لماذا تسأل إن كانوا قد أحضروا

زهور البرتقال؟ هل تخفي أية نوايا؟

ليوناردو:

- على الإطلاق. أية نوايا يمكن أن أخفيها؟ (يقترّب). أنتِ، التي

تعرفيني، تدركين أنني لا أخفي شيئاً من ذلك. قلّ لي. من كنتُ أنا

بالنسبة إليك؟ افتحي ذاكرتك وأنعشيها. لكنّ ثورين وكوخاً متواضعاً لا

تساوي شيئاً. هذه هي الشوكة.

الخطيبة:

- لماذا جئت؟

ليوناردو:

- كي أحضر زواجك.

الخطيبة:

- وأنا أيضاً قد حضرت زواجك!

ليوناردو:

أنتِ ربّته. بيدك الاثنتين. إنّ بإمكانهم أن يقتلوني، لكنّ ليس بإمكانهم أن يبصقوني. والنقود الفضية، التي تلمع كثيراً، هي تبصق بعض الأحيان.

الخطيبة:

- كذب!

ليوناردو:

- لا أريد أن أتكلم، لأنني رجل محترم، ولا أريد أن تَرِدَ صيحاتي كلُّ هذه التلال.

الخطيبة:

- ستكون صيحاتي أكثر قوّة.

الخادمة:

- لا يمكن لهذه الكلمات أن تتواصل. لا يجوز الحديث عن الماضي.
(الخادمة تنظر إلى الأبواب بقلق).

الخطيبة:

- أنتِ على حق. عليّ حتى ألاّ أوجه اليك الحديث. لكنّ روعي انتقدت وأنتِ تأتي لتراني وتترصد عرسي وتسال بنوايا مضمرّة عن زهر البرتقال. اذهب وانتظر زوجتك عند الباب.

ليوناردو:

- أليس بإمكاننا أن نتحدث معاً؟

الخادمة (بغضب):

- لا؛ ليس بإمكانكما أن تتحدثا.

ليوناردو:

- منذ زواجي وأنا أفكر ليل نهار عمّن كان السبب في ما حصل، وفي كل مرة فكرت فيها، كان يبرز سبب جديد يحل مكان سابقه؛ لكنّ دائماً هناك من ارتكب الخطأ!

الخطيبة:

- إنّ رجلاً على حصانه يعرف الكثير ويستطيع أن يفعل الكثير كي يسحق فتاة في الصحراء. لكنّ أنا لديّ كبرياء، ولهذا تزوجت. وسأحتضن زوجي، الذي عليّ أن أحبه قبل كل شيء.

ليوناردو:

- لن يفيدك الكبرياء في شيء. (يقترّب).

الخطيبة:

- لا تقترّب!

ليوناردو:

- السكوت والاحترق هما العقوبة الأقسى التي يمكننا أن نوقعها بأنفسنا. ماذا أفادني الكبرياء وعدم رؤيتك وتركي لك مستيقظة ليالٍ وليالٍ؟ لا شيء! أفادني ذلك في أن أشعل النار في روحي! أنتِ تظنين أن الزمن يشفي وأن الجدران تحجب، وهذا ليس صحيحاً، ليس صحيحاً. عندما تصل الأمور إلى الأعماق، ليس هناك من يستطيع اقتلاعها!

الخطيبة (ترتجف):

- لا أستطيع سماعك. لا أستطيع سماع صوتك؛ الذي هو كمن يسقيني زجاجة يانسون وبنيمني على فراش من الورود. يجرفني، وأعلم أنني أغرق، لكنني أمضي وراءه.

الخادمة (وهي تمسك بليوناردو من ثيابه):

- عليك أن تذهب الآن حالاً!

ليوناردو:

- أنا أتكلم معها للمرة الأخيرة. لا تخشي شيئاً.

الخطيبة:

- وأعرف أنني حمقاء وأعرف أن صدري يمتلئ بالمعاناة، وهأنا أستمع إليه بهدوء وأرى حركة ذراعيه.

ليوناردو:

- لم أكن لأرتاح لو لم أقل لك هذه الأشياء. لقد تزوجتُ؛ فتزوجي أنت الآن.

الخدمة (ليوناردو):

- وستتزوج!

أصوات (تغني وهي تقترب):

لتستيقظ الخطيبة

صباح العرس.

الخطيبة:

لتستيقظ الخطيبة!

(تجري مسرعة إلى غرفتها).

الخدمة:

- لقد وصل الناس. (ليوناردو) لا تعد إلى الاقتراب منها.

ليوناردو:

- كوني مطمئنة.

(يخرج من ناحية اليسار. تظهر أول أضواء النهار).

الفتاة الأولى (وهي تدخل):

لتستيقظ الخطيبة

صباح العرس؛

ليطُف العشاق

وفي كل شرفة إكليل.

أصوات:

لتستيقظ الخطيبة!

الخدمة (تتحرك بجلبة):

فلتستيقظ

مع باقة خضراء

للحب المزهري.

فلتستيقظ

مع جذوع الغار

وأغصانه!

الفتاة الثانية (تدخل):

فلتستيقظ

بالشعر الطويل،

والقميص الأبيض كالتلج،

والحذاء اللامع المفضض

والياسمين فوق الجبين.

الخدمة:

آه، أيتها الراعية،

القمر يطل!

الفتاة الأولى:

آه، أيها العاشق الغزل،

دع قبعتك عند كرم الزيتون!

الفتى الأول (يدخل، رافعاً قبعته إلى الأعلى)

لتستيقظ الخطيبة،
فعبّر الحقل
يُقبل العرس
بصينيات الأضاليا
والحلوى المجيدة.
أصوات:
لتستيقظ الخطيبة!
الفتاة الثانية:
الخطيبة
وضعت إكليلها الأبيض،
والخطيب
يشده بأشرطة من ذهب.
الخادمة:
من رائحة الأترج
أجفى الخطيبة النوم.
الفتاة الثالثة (تدخل):
في حقل البرتقال
يقدم لها الخطيب ملعقةً وغطاء مائدة.
(يدخل ثلاثة مدعوين).
الفتى الأول:

استيقظي، يا حمامة!

فالفجر يُبعد

أجراس الظلام.

مدعو:

الخطيبة، الخطيبة البيضاء،

اليوم فتاة،

وغداً سيدة.

الفتاة الأولى:

انزلي يا سمراء،

تجرّين ذيلك الحريري.

مدعو:

انزلي أيتها السمراء الصغيرة،

فالصباح البارد يمطر الندى.

الفتى الأول:

أفيقوا، سيّدتي، أفيقوا،

فالريح تمطر زهر البرتقال.

الخادمة:

أريد أن أطرّز شجرة

تملوها أشرطة حمراء قانية

وفي كل شريط حكاية حبّ

كُتِبَ حولها: عاش الحب.

أصوات:

لتستيقظ الخطيبة.

الفتى الأول:

صباح العرس!

مدعو:

صباح العرس

كم ستكونين جميلة؛

مثل زهرة الجبال،

مثل زوجة قبطان.

الأب (يدخل):

زوجة قبطان

يذهب بها الخطيب،

الذي يأتي بشيرانه من أجل الكنز!

الفتاة الثالثة:

الخطيب

يشبه زهرة من ذهب

عندما يمشي،

تتجمّع عند قدميه زهرات القرنفل الصغيرة.

الخادمة:

آي يا طفلي المحظوظة!

الفتى الثاني:

لتستيقظ الخطيبة.

الخادمة:

آي يا جميلتي!

الفتاة الأولى:

العرس ينادي

عبر النوافذ.

الفتاة الثانية:

فلتخرج الخطيبة.

الفتاة الأولى:

فلتخرج، فلتخرج!

الخادمة:

فلتقرع الأجراس

وتواصل قرعها!

الفتى الأول:

فلتأتِ إلى هنا! فلتخرج!

الخادمة:

مثل ثور،

ينطلق العرس!

(تظهر الخطبة. ترتدي ثوباً أسود طراز ألف وتسعمائة، ذا أرداف وذيل طويل يحيط به نسيج شفاف ذو ثنيات وتطريز بارز. فوق تسريحة الشعر المرفوع تضع إكليل زهر البرتقال. تصدح آلات الغيتار. الفتيات يقبلن الخطيبة).

الفتاة الثالثة:

- ما هو العطر الذي تضعينه لشعرك؟

الخطيبة (وهي تضحك):

- لا شيء.

الفتاة الثانية (وهي تتأمل الثوب):

- القماش من النوع الذي لا مثيل له.

الفتى الأول:

- ها هو الخطيب!

الخطيب:

- مرحباً!

الفتاة الأولى (وهي تضع له زهرة فوق أذنه):

الخطيب

يشبه زهرة من ذهب.

الفتاة الثانية:

أجواء الهدوء

تفيض من عينيه!

(يتجه الخطيب إلى جانب الخطيبة).

الخطيبة:

- لمَ اخترتَ هذا الحذاء؟

الخطيب:

- لونه زاهٍ أكثر من الأسود.

زوجة ليوناردو (وهي تدخل وتقبل الخطيبة):

- مرحباً! (النساء يتحدثن جميعاً بصخب).

ليوناردو (يدخل كمن يؤدي مجرد واجب):

صباح الزواج

نضع لكِ الإكليل.

زوجة ليوناردو:

كي يفرح الحقل

بماء شعرك!

الأم (للأب):

- وأيضاً هذان هما هنا؟

الأب:

- إنهما من الأسرة. اليوم هو يوم العفو والمسامحة!

الأم:

- أنا أتحمّل، لكن لا أسامح.

الخطيب:

- ما أجمل النظر إليك وأنت بالإكليل!

الخطيبة:

- حان وقت الذهاب إلى الكنيسة!

الخطيب:

- هل تريدان الإسراع؟

الخطيبة:

- أجل. أنا راغبة في أن أصبح زوجتك وأن نبقي وحيدين أنت وأنا،
وألّا أسمع صوتاً غير صوتك.

الخطيب:

- هذا ما أريده أنا!

الخطيبة:

- وألّا أرى سوى عينيك. وأن تعانقني بقوة، حتى ولو ناددتني أمي،
المتوفاة، لن تستطيع إبعادي عنك.

الخطيب:

- أنا لديّ قوة في ذراعيّ. سأضمك أربعين سنة متوالية.

الخطيبة (بانفعال، تمسك بذراعه):

- دائماً!

الأب:

- فلنتحرك بسرعة! إلى المطايا والعربات. فقد أشرقت الشمس.

الأم:

- يجب أن تتطلقوا بحذر! وعسى ألا نقع في ساعة شؤم.
(تُفتح البوابة في العمق. ويشرع الموجودون في الخروج).

الخادمة (باكية):

عند خروجك من بيتك،

أيتها البكر البيضاء،

تذكّري أنك تخرجين

مثل نجمة...

الفتاة الأولى:

نظيفة الجسد والثوب

تخرجين من بيتك إلى الزفاف.

(يخرجون).

الفتاة الثانية:

ها أنتِ تخرجين من بيتك

إلى الكنيسة!

الخادمة:

الريح تفرش الزهور

فوق الرمال!

الفتاة الثالثة:

آي أيتها الفتاة البيضاء!

الخادمة:

مظهر داكن

لخارف خمارها.

(يخرجون. تُسمع أصوات آلات الغيتار والطبول والدفوف. يبقى ليوناردو وزوجته بمفردهما).

الزوجة:

- هيا.

ليوناردو:

- إلى أين؟

الزوجة:

- إلى الكنيسة. لكن لا تذهب على الحصان. تعال معي.

ليوناردو:

- في العربة؟

الزوجة:

- هل هناك وسيلة أخرى؟

ليوناردو:

- أنا لست الرجل الذي يذهب في عربة.

الزوجة:

- وأنا لست المرأة التي تذهب إلى حفلة زفاف من غير أن يرافقها

زوجها. لا أستطيع التحمل أكثر من هذا!

ليوناردو:

- ولا أنا!

الزوجة:

- لم تنظر إليّ هكذا؟ لك شوكة في كل من عينيك.

ليوناردو:

- هيا!

الزوجة:

- لا أدري ما الذي يحدث. لكنني أُخمن ولا أريد أن أُخمن. شيء واحد أعرفه. لقد فقدتُ الأمل. لكن لديّ ابن. وآخر قادم. ونواصل المتابعة. هذا نفسه كان قدر أمي.. لكنني لن أتحرك من هنا.
(تسمع أصوات في الخارج).

الأصوات:

عند خروجك من بيتك

إلى الكنيسة،

تذكّري أنك تخرجين

مثل نجمة!

الزوجة (باكية):

تذكّري أنك تخرجين

مثل نجمة!

هكذا خرجتُ أنا من بيتي أيضاً. لم تكن الدنيا تتسع لي من شدة الفرح.

ليوناردو (وهو ينهض):

- هيا بنا.

الزوجة:

- لكن معي!

ليوناردو:

- أجل. (صمت). هيا!

(يخرجان).

أصوات:

عند خروجك من بيتك

إلى الكنيسة،

تذكري أنك تخرجين

مثل نجمة.

ستارة بطيئة

اللوحة الثانية

خارج كهف الخطيبة. تدرجات لونية بين الأبيض والرمادي والأزرق
البارد. نباتات صبار ضخمة. ألوان داكنة وفضية. لوحة بانورامية
لتلال بلون ترابي، كل شيء يبدو قاسياً مثل خزف شعبي.

الخادمة (وهي تقوم بتجهيز المائدة بالكؤوس والصينيات):

دارت،

دارت الرحي

وتدققت المياه،

لأن العرس قادم

فلتتمايل الأغصان

وليتزيّن القمر

بهالته البيضاء.

(بصوت عالٍ):

ضعي أغطية الموائد!

(بصوت مؤنث):

كانا يغنيان،

كان الخطيبان يغنيان

والماء يتدفق،

فقد أقبل العرس
فليتمع الجليد
وليمتلئ اللوز المرّ
بالعسل.
(بصوت عالٍ):
حضري النبيذ!
(بصوت شاعري):
أيتها الفاتنة.
فاتنة الدنيا.
انظري كيف يتدفق الماء.
إذ يُقبل عرسك
اجمعي ثيابك
وتحت جناح الخطيب
أبدأ لن تغادري بيتك
فالخطيب طير حمام
صدره من جمر
والحقل يترقب
خرير الدم المراق.
دارت،
دارت الرحي

وتدفقت المياه.

لأنَّ عرسك قادم،

دعي المياه تُبرق!

الأم (تدخل):

- أخيراً!

الأب:

- هل نحن أول القادمين؟

الخادمة:

- لا. منذ قليل وصل ليوناردو مع زوجته. كانا مسرعين مثل شيطانين.

وصلت الزوجة والخوف يملؤها. عبرا الطريق وكأنهما قد جاءا على

صهوة حصان.

الأب:

- هذا يسعى إلى مصيبة. دمه ليس صافياً.

الأم:

- أي دم يمكن أن يكون له؟ غير دم كل أسرته. متوارثٌ منذ جد أبيه،

الذي بدأ القتل، واستمر هذا في ذريته السيئة، التي أجادت الطعن

بالسكاكين، والابتسامات الزائفة.

الأب:

- دعونا من هذا الحديث!

الخادمة:

- كيف يمكنها الكفّ عنه؟

الأم:

- معاناتي منهم تصل حتّى أطراف شراييني. لا أرى في جميع جباههم إلاّ اليد التي قتلوا بها مَنْ كان عزيزاً عليّ. هل تراني؟ ألاّ أبدو لك مجنونة؟ أنا مجنونة لأتّي لم أصرخ بكل ما يعتلج في صدري. لديّ في صدري صرخة دائمة عليّ أن أكتمها بين جوانحي. لكنّ هذا يكاد يصل بي إلى عالم الأموات.. ويجب الصمت. وفوق ذلك فالناس ينتقدون. (تخلع المعطف).

الأب:

- ليس هذا هو اليوم الذي تتذكرين فيه مثل هذه الأمور.

الأم:

- عندما يبدأ الحديث، عليّ أن أتحدّث. واليوم أكثر من أي يوم آخر. لأنني في هذا اليوم سأبقى وحيدة في بيتي.

الأب:

- بانتظار من سيكونون في صحبتك.

الأم:

- هذا هو أمني: الأحفاد.

(يجلسان).

الأب:

- أتمنى أن يُرزقا بالعديد منهم. هذه الأرض تحتاج إلى أذرع غير مدفوعة الأجر. يجب التعاضد من أجل معركة مع الأعشاب الضارة، مع الحراشف، مع الأحجار التي لا يُعرف من أين تخرج. وهذه الأذرع يجب أن تكون أذرع أصحاب الأرض، الذين عليهم أن يتغلبوا عليها، لتنتبت البذور. إنهما بحاجة إلى الكثير من الأبناء.

الأم:

- وأن تكون لهما بنت أيضاً! الذكور هم للريح! وعليهم بطبيعتهم أن يستخدموا السلاح. النبات لا يخرج إطلافاً إلى الشارع.

الأب (فرحاً):

- أعتقد أنهما سينجبان من الجنسين.

الأم:

- ابني رجل ذو بذرة طيبة، وسيقوم بواجبه كزوج مقتدر. كان بإمكان والده أن ينجب معي أبناء كثيرين.

الأب:

- ما كنت أتمناه هو لو أن ذلك يمكن إنجازه في يوم واحد. فسيكون لديهما في الحال رجلان أو ثلاثة.

الأم:

- لكنّ الأمر ليس كذلك. سيستغرق الكثير من الوقت. لذلك فكم هو رهيب أن نرى الدم يُسْفح على الأرض. إن نبعاً يجري لدقيقة واحدة يحتاج منا إلى سنين. عندما وصلتُ أنا لمشاهدة ابني كان صريعاً

وسط الشارع. خضبتُ يديّ بدمه ولعقته بلساني. لأنه كان دمي. أنت لا تعرف ما هو هذا. كنت أتمنى لو أضع ذلك التراب المغمّس به في حقّة قربان مقدّس من الزجاج والياقوت.

الأب:

- الآن عليك الانتظار. ابنتي مِخصاب وابنتك قويّ.

الأم:

- آمل ذلك.

(ينهضان).

الأب:

- أعدّي صينيّات القمح.

الخادمة:

- لقد أعددتها.

زوجة ليوناردو (وهي تدخل مع زوجها):

- نتمنّى كل الخير!

الأم:

- شكراً.

ليوناردو:

- هل ستقام حفلة؟

الأب:

- لفترة قصيرة. ليس بإمكان الناس أن يتأخروا كثيراً.

الخدمة:

- لقد وصلوا!

(يدخل مدعوون، ضمن مجموعات فرحة. يدخل الخطيبان متشابكي الذراعين. يخرج ليوناردو).

الخطيب:

- لم يجتمع في أي عرس مثل هذا الحشد من الناس.

الخطيبة (متجهمة):

- ولا في أيّ عرس.

الأب:

- كان الزفاف رائعاً.

الأم:

- فروع بكاملها من الأسر جاءت.

الخطيب:

- حتى أولئك الذين لم يتعودوا الخروج من منازلهم.

الأم:

- أبوك زرع الكثير وأنت الآن تجنيه.

الخطيب:

- جاء أبناء أعمام لم أكن أعرفهم.

الأم:

- كل أهالي الساحل.

الخطيب (فرحاً):

- لقد خافوا من الخيل.

(يتحدثون).

الأم (للخطيبة):

- بم تفكرين؟

الخطيبة:

- لا أفكر في شيء.

الأم:

- عبء البركات ثقيل جداً.

(تسمع أصوات عزف آلات غيتار).

الخطيبة:

- مثل الرصاص.

الأم (بحدة):

- لكن ينبغي ألا تكون ثقيلة عليك. يجب أن تكوني خفيفة كالحمامة.

الخطيبة:

- هل ستبقين هنا هذه الليلة؟

الأم:

- لا. فبיתי وحيد.

الخطيبة:

- أليتك تبقين!

الأب (للأم):

- انظري إلى أشكال الرقص التي يتخذونها. رقصات المناطق القريبة من شاطئ البحر.

(يظهر ليوناردو ويجلس. زوجته خلفه، وجهها متجهم).

الأم:

- هم أبناء عم زوجي. إنهم أشداء في الرقص مثل الصخور.

الأب:

- تسرني رؤيتهم. أيُّ تغيير حدث في هذا البيت! (يذهب).

الخطيب (للخطيبة):

- هل أعجبك إكليل الزهر؟

الخطيبة (تنظر إليه بشرود):

- أجل.

الخطيب:

- كله مصنوع من الشمع. يدوم باستمرار. كنت أتمنى لو أنه يغمر

كامل ثيابك.

الخطيبة:

- وهكذا جيد أيضاً. (ينصرف ليوناردو من ناحية اليمين).

الفتاة الأولى:

- تعالي ننزع الدبايس.

الخطيبة (للخطيب):

- سأعود حالاً.

زوجة ليوناردو:

- أتمنى لك السعادة مع ابنة عمي!

الخطيب:

- أنا واثق من ذلك.

زوجة ليوناردو:

- ها أنتما معاً، لا تخرجان أبداً، وليعمر بكما هذا البيت. وأتمنى لو

أعيش أنا أيضاً هكذا، بعيداً!

الخطيب:

- لماذا لا تشتريان أراضٍ؟ الجبل رخيص الثمن، وسيعيش الأولاد

بصورة أفضل.

الزوجة:

- ليس لدينا مال. ومع هذا الطريق الذي نسلكه.

الخطيب:

- زوجك رجل مُجدّ.

الزوجة:

- صحيح. لكنه يفضل التنقل أكثر مما يجب. إنه يذهب من شيء إلى

آخر. ليس رجلاً مستقرّاً.

الخادمة:

- ألا تتناولون شيئاً؟ سأوضّب لكِ بعض كعك النبيذ كي تأخذه لوالدتك، أنا أعرف أنها تحبه كثيراً.

الخطيب:

- ضعي لها ثلاث دزّينات¹.

الزوجة:

- لا. لا. يكفي نصف دزينة.

الخطيب:

- هذا اليوم ليس مثل كل الأيام.

الزوجة (للخادمة):

- وليوناردو؟

الخادمة:

- لم أزه.

الخطيب:

- لا بد وأنه مع الآخرين.

الزوجة:

- سأذهب لأرى (تذهب).

الخادمة:

الحفلُ رائع.

¹ - رأيت استخدام كلمة "دزّينة" ولو أنها ليست فصيحة، لكنّها المقابل الدقيق للأصل الإسباني docena، وأصبحت مألوفاً للسمع. - المترجم -.

الخطيب:

- وأنتِ ألا ترقصين؟

الخادمة:

- ليس هناك من يراقصني.

(تمر في العمق فتاتان؛ حيث يستمر في هذا المشهد مرور الناس).

الخطيب (فِرْحاً):

- هذا اسمه عدم الإدراك. الكبيرات اللواتي يحتفظن بنضارتهم مثلك،

يرقصن أفضل من الصبايا.

الخادمة:

- لكن، هل تريد أن تبدأ بمغازلتني، يا فتى؟ أية أسرة هي أسرتكم هذه!

كلهم ذكور وسط ذكور! لقد شهدتُ عرس جدك وكنت بعدُ طفلة. أية

قائمة له! كان يبدو وكأن جبالاً سيتزوج.

الخطيب:

- أنا أقصر منه قائمة.

الخادمة:

- لكنّ البريق نفسه في العيون.. أين الصغيرة؟

الخطيب:

- تقوم بنزع الطرحة.

الخادمة:

- آه! انظر! من أجل منتصف الليل، بما أنكما لن تتاما، فقد أعددت
لكما لحم الخنزير المقدد، وبعض الأكوام الكبيرة من النبيذ المعتق،
وستجدانها في القسم السفلي من الخزانة، إذا احتجتما إلى ذلك.
الخطيب (مبتسماً).

- أنا لا أكل عند منتصف الليل.
الخادمة (بخبث):

إن لم تأكل أنت، فالخطيبة تأكل.
(تذهب).

الفتى الأول (وهو يدخل):

- يجب أن تشرب معنا!
الخطيب:

- أنا بانتظار الخطيبة.
الفتى الثاني:

- ستكون معك عند الفجر!
الفتى الأول:

- في الوقت الذي يروك أكثر!
الفتى الثاني:

- لحظة واحدة.
الخطيب:

- هيا.

(يخرجون. تُسمع جلبة كبيرة. تظهر الخطيبة. ومن الجهة المقابلة، تبدو فتاتان مسرعتان للقائهما).

الفتاة الأولى:

- لمن أعطيت الدبوس الأول، لي أم لهذه؟

الخطيبة:

- لا أتذكر.

الفتاة الأولى:

- أعطيتَه لي هنا.

الفتاة الثانية:

- أعطيته لي أمام المذبح.

الخطيبة (قلقة، مع توتر داخلي شديد):

- لا أعرف شيئاً.

الفتاة الأولى:

- لأنِّي كنتُ أتمنى أنك...

الخطيبة (مقاطعة):

- هذا لا يهمني. لديّ الكثير مما هو عليّ التفكير فيه.

الفتاة الثانية:

- معذرة.

(ليوناردو يعبر في العمق).

الخطيبة (وهي تشاهد ليوناردو):

- إنها لحظات قلقة.
الفتاة الأولى:
- نحن لا نعرف شيئاً!
الخطيبة:
- ستعرفان عندما يحين الوقت. هذه الخطوات باهظة التكلفة.
الفتاة الأولى:
- هل أنت متضايقه؟
الخطيبة:
- لا. اعدراني.
الفتاة الثانية:
- عن أي شيء؟ لكنّ الدبوسين ضروريان للزواج. أليس كذلك؟
الخطيبة:
- الاثنان.
الفتاة الأولى:
- الآن، ستتزوج إحدانا قبل الأخرى.
الخطيبة:
- هل لديكما كل هذه الرغبة؟
الفتاة الثانية (بخجل):
- أجل.
الخطيبة:

- لماذا؟

الفتاة الأولى:

- لأن... (تعانق الأخرى).

(تجري الاثنتان خارجتين. يصل الخطيب، ويكثر من الصمت والحذر

يعانق الخطيبة من الخلف).

الخطيبة: (مذعورة):

- اتركني!

الخطيب:

- أتخافين مني؟

الخطيبة:

- آي! هذا أنت؟

الخطيب:

- من سيكون؟ (صمت) إمّا أبوك أو أنا.

الخطيبة:

- هذا صحيح!

الخطيب:

- لو أنه أبوك لعانقك بطريقة أكثر ليناً.

الخطيبة (متجهمة):

- طبعاً.

الخطيب:

- لأنه متقدم في السن . (يعانقها بقوة، وبشيء من الفظاظة).
الخطيبة (بطريقة جافة):
- اتركني!
الخطيب:
- لماذا؟ (يتركها).
الخطيبة:
- لأنّ.. الناس . يمكن أن يرونا.
(تمر الخادمة في العمق، من غير أن تنظر إلى الخطيبين).
الخطيب:
- وماذا في الأمر؟ الآن أصبح هذا مقدّساً.
الخطيبة:
- صحيح . لكن اتركني.. فيما بعد.
الخطيب:
- لماذا؟ وكأنك خائفة!
الخطيبة:
- لا شيء . لا تذهب.
(تظهر زوجة ليوناردو).
زوجة ليوناردو:
- لا أريد أن أقطع حديثكما...
الخطيب:

- قولي لي .

الزوجة:

- هل مرّ زوجي من هنا؟

الخطيب:

- لا .

الزوجة:

- لأنني لم أجدّه، كما أنّ حصانه ليس في الإسطبل .

الخطيب (مسروراً):

- لا بد وأنه يعدو به .

(تنصرف الزوجة قلقة . تأتي الخادمة) .

الخادمة:

- أستمنا فرِحَيْن بكل هذه التحيات؟

الخطيب:

- أنا أرغب في أن ينتهي كل هذا . الخطيبة تشعر ببعض التعب .

الخادمة:

- ما هذا يا صغيرة؟

الخطيبة:

- أشعر بألم في الصدغين!

الخادمة:

- خطيبة من هذه المنطقة الجبلية لا بد أن تكون قوية. (للخطيب) أنت الوحيد الذي باستطاعته أن يشفيها، لأنها لك. (تخرج مسرعة).

الخطيب (يعانقها):

- هيّا نخرج قليلاً إلى الرقص. (يقبلها).

الخطيبة (غير مرتاحة):

- لا. أود لو أستلقي في السرير قليلاً.

الخطيب:

- سأرافقك.

الخطيبة:

- أبدأ! بوجود كل هؤلاء الناس هنا؟ دعني أرتاح قليلاً.

الخطيب:

- كما تريد! لكن لا تكوني هكذا خلال الليل!

الخطيبة (عند الباب):

- في الليل سأكون بحالة أفضل.

الخطيب:

- وهو ما أتمناه!

(تظهر الأم).

الأم:

- ابني.

الخطيب:

- أين كنتِ؟

الأم:

- وسط كل هذا الصخب. هل أنت مسرور؟

الخطيب:

- أجل.

الأم:

- وزوجتك؟

الخطيب:

- ترتاح قليلاً. إنه يوم سيئ للعرائس!

الأم:

- يوم سيئ؟ إنه الوحيد الجيد. فيما يتعلق بي كان يوماً من التراث.

(تدخل الخادمة متّجهة إلى غرفة الخطيبة). إنه حرثُ الأرض، وغرسُ

أشجارٍ جديدة.

الخطيب:

- هل ستذهبين؟

الأم:

- أجل. عليّ أن أكون في بيتي.

الخطيب:

- وحيدة.

الأم:

- وحيدة لا. رأسي يمتلئ بالأشياء وبالرجال وبالصراعات.

الخطيب:

- لكنها لم تعد صراعات.

(تظهر الخادمة مسرعة؛ وتختفي مهرولةً في العمق).

الأم:

- طالما أن الواحدة منّا تعيش فهي تكافح.

الخطيب:

- إني مطيع دائماً!

الأم:

- اعمل على أن تكون عطوفاً مع زوجتك، وإذا لاحظت مرةً أنها متكبرة أو فظة، داعبها بطريقة تسبب لها بعض الألم، عناق قوي، عضّة ثم قبلة لطيفة، بحيث لا تنزعج، لكنها يجب أن تشعر بأنك أنت الرجل، السيد الأمر، هكذا تعلمت من والدك. ولأنه ليس موجوداً، عليّ أن أكون أنا من يدلّك على ما يدعّم قوتك.

الخطيب:

- سأفعل دائماً ما تأمرين به.

الأب (يدخل):

- وابنتي؟

الخطيب:

- هي في الداخل.

(يخرج الأب)

الفتاة الأولى:

- ليأتِ الخطيبان، هيّا نعقد حلقة الرقص!

الفتى الأول (للخطيب):

- أنت ستقود الرقصة.

الأب (وهو يدخل):

- ليست موجودة هنا!

الخطيب:

- لا؟

الأب:

- لا بد وأنها خرجت إلى الشرفة.

الخطيب:

- سأذهب لأرى (يخرج).

(تُسمع جلبة وعزف آلات غيتار).

الفتاة الأولى:

- لقد بدؤوا! (تخرج).

الخطيب (وهو يدخل):

- ليست هناك.

الأم (قلقة):

- حقاً؟

الأب:

- إلى أين يمكن أن تكون قد ذهبت؟

الخادمة (تدخل):

- والصغيرة، أين هي؟

الأم (متجهمة):

- لا نعرف.

(يخرج الخطيب. يدخل ثلاثة مدعويين).

الأب (بقلق):

- لكن، أليست مع الراقصين؟

الخادمة:

- ليست مع الراقصين.

الأب (بغضب):

- هناك أناس كثيرون. ابحثوا!

الخادمة:

- لقد بحثت!

الأب (بأسى):

- إذاً أين هي؟

الخطيب (يدخل):

- لا شيء. ولا في أي مكان.

الأم (للأب):

- ما هذا؟ أين هي ابنتك؟

(تدخل زوجة ليوناردو).

الزوجة:

- لقد هربا! هربا! هي وليوناردو. على الحصان. ذهبا متعانقين، مثل

البرق!

الأب:

- ليس صحيحاً! ابنتي، لا!

الأم:

- ابنتك، أجل! نبتة لأم سيئة، وهو، هو أيضاً، هو. لكنها.. أصبحت

الآن زوجة ابني!

الخطيب:

- فلننطلق خلفهما! من لديه حصان هنا؟

الأم:

- من لديه حصان هنا، من لديه حصان؟ وسأعطيه كل ما أملك،

عينيّ وحتى لساني...

صوت:

- هنا يوجد واحد.

الأم (للابن):

- تحرك! وراءهما!

(يخرج مع اثنتين من الفتيان).

لا. لا تذهب. هؤلاء الناس يقتلون فوراً ويعرفون كيف يقتلون..! لكن
أجل، انطلق، وأنا وراءك!
الأب:

- لن تكون هي. ربما أنها قد أَلقت بنفسها في البئر.
الأم:

وحدهنَّ الشريقات، الطاهرات، هنَّ من يلقين بأنفسهن في الماء. أما
هذه، فلا! لكنها الآن أصبحت زوجة ابني. مجموعتان. هنا الآن
مجموعتان. (يدخل الجميع). أسرتي وأسرتك. اخرجوا جميعاً من هنا.
انفضوا الغبار عن أحذيتكم. هيا لمساعدة ابني.
(ينقسم الموجودون إلى مجموعتين).

لأن له ناسه، وهم أبناء أعمامه القادمون من السواحل، وجميع الذين
يصلون من أراضي الداخل. اخرجوا من هنا! عبر كل الطرق. لقد
جاءت ساعة الدم مرّةً أخرى. مجموعتان. أنتَ مع مجموعتك وأنا مع
مجموعتي. وراءهما! وراءهما!

ستارة

نهاية الفصل الثاني

الفصل الثالث

اللوحة الأولى

- (غابة. الوقت ليل. جذوع أشجار ضخمة نديّة. جو مظلم. يُسمع صوت آلتَي كمان).
(يدخل ثلاثة حطّابين).
الخطاب الأول:
- وهل عثروا عليهما؟
الخطاب الثاني:
- لا. لكنهم يبحثون في كل الجهات.
الخطاب الثالث:
- سيعثرون عليهما.
الخطاب الثاني:
- هسسسس!
الخطاب الثالث:
- ماذا؟
الخطاب الثاني:
- يبدو أنهم يقتربون عبر كل الطرقات في وقت واحد.
الخطاب الأول:
- عندما يطلع القمر سيرونهما.

الخطاب الثاني:

- كان ينبغي أن يدعاهما وشأنهما.

الخطاب الأول:

- العالم واسع. بإمكان الجميع أن يعيشوا فيه.

الخطاب الثالث:

- لكن سيقتلونهما.

الخطاب الثاني:

- يجب على الإنسان أن يتبع هواه؛ لقد فعلا خيراً إذ هربا.

الخطاب الأول:

- كان كل منهما يخدع الآخر وفي النهاية تغلب الدم.

الخطاب الثالث:

- الدم!

الخطاب الأول:

- يجب اتباع طريق الدم.

الخطاب الثاني:

- لكن الدم الذي يرى النور تنتشره الأرض.

الخطاب الأول:

- وماذا؟ من الأفضل أن أموت مضرّجاً بدمي من أن أعيش بدم فاسد.

الخطاب الثالث:

- سكوت.

الخطاب الأول:

- ماذا؟ هل تسمع شيئاً؟

الخطاب الثالث:

- أسمع الجدادج، والضفادع، وتوجّس الليل.

الخطاب الأول:

- لكنّ لا يُسمع صوتٌ للحصان.

الخطاب الثالث:

- لا.

الخطاب الأول:

- لا بد وأنه الآن يعانقها.

الخطاب الثاني:

- جسدها له وجسده لها.

الخطاب الثالث:

- يبحثون عنهما وسيقتلونهما.

الخطاب الأول:

- لكنّ بعد أن تكون دماؤهما قد امتزجت، وأصبحا مثل دنين خاويين،
مثل ساقيتين جافتين.

الخطاب الثاني:

- هناك الكثير من الغيوم وقد لا يظهر القمر.

الخطاب الثالث:

- سيعثر عليهما الخطيب مع قمر أو من غير قمر. لقد رأيتَه يخرج
مثل كوكب هائج، وجهه رمادي، يفصح عن مصير سلالته.

الخطاب الأول:

- سلالته التي يموت أفرادها على قارعة الطريق.

الخطاب الثاني:

- هذا صحيح!

الخطاب الثالث:

- هل تعتقد أنهما سيتمكنان من اختراق الحصار؟

الخطاب الثاني:

- هذا صعب. فهناك سكاكين وبنادق تحيط بهما على امتداد عشرة
فراسخ.

الخطاب الثالث:

- إنه يمتطي حصاناً جيداً.

الخطاب الثاني:

لكنه يصحب معه امرأة.

الخطاب الأول:

- ها قد أشرفنا على الانتهاء.

الخطاب الثاني:

- شجرة ذات أربعين فرعاً. سنقطعها بأسرع ما يمكن.

الخطاب الثالث:

- الآن يظهر القمر . فلنسرع .
(يظهر ضوء من الناحية اليسرى).
- الخطاب الأول:
آه أيها القمر فلتبزغ!
قمر الأوراق الكبيرة.
الخطاب الثاني:
املاً الدم بالياسمين!
الخطاب الأول:
آه أيها القمر الوحيد
قمر الأوراق الخضر!
الخطاب الثاني:
فضةً في وجه الخطيبة.
الخطاب الثالث:
آه أيها القمر السيئ!
دع الغصن الظليل للحب.
الخطاب الأول:
آه أيها القمر الحزين!
دع الغصن الظليل للحب.

(يخرجون. من خلال الضوء الذي ظهر من الناحية اليسرى يبرز القمر.
القمر هو في صورة حطّاب شاب ذي وجه أبيض. المسرح يشرق
بضياء أزرق لامع).

القمر:

طائرٌ تمّ مستدير في النهر،
عين الكاتدرائيات،
فجرٌ يتظاهر في الأوراق
ذاك أنا؛ لن يستطيعا الإفلات!
من الذي يختبئ؟ من الذي ينشج
في أدغال الوادي؟
يترك القمر سكيناً
مرميّة في الهواء،
تترصد كالرصاص
يريد أن يكون ألماً من دم.
دعوني أدخل! وصلت متجمّداً
عبر الزجاج والجدران!
افتحوا السقوف والصدور
حيث أستطيع أن أتدفأ!
أشعر بالبرد! فرمادي
من معادن ناعسة،

تبحث عن قمة النار
عبر الجبال والشوارع،
لكن تحملني الثلوج
على ظهر من يشب،
وتغمرنى مياه الغدران
القاسية والباردة.
هذه الليلة يكتسي خدائي
دماً أحمر،
ويحتشد الأسلُ
في أقدام الهواء الواسعة.
ليس هناك ظل ولا مخبأ،
فلن يستطيعا الفرار!
كم أودّ الدخول في صدرِ
أستطيع فيه أن أتدفأ!
أريد قلباً من أجلي!
دافئاً، ينسكب
على جبال صدري؛
دعوني أدخل، آه، دعوني!
(مخاطباً الأغصان).
لا أريد ظلالاً. أريد لأشعني

أن تدخل إلى كل مكان،
وأن تسطع الأضواء
في الجذوع المظلمة،
كي يكتسي خدّاي هذه الليلة
دماً حلواً،
ويحتشد الأسل
في أقدام الهواء الواسعة.
من الذي يختبئ؟ اخرجوا أقول!
لا! لن يستطيعوا الفرار!
سوف أضيء الحصان
بحمّي من الماس.

(يختفي بين جذوع الأشجار، ويعود المسرح إلى ضوئه الشحيح. تخرج امرأة مسنة مغطاة بالكامل بقماش رقيق لونه أخضر غامق. حافية القدمين. بالكاد يتبين وجهها من بين ثنيات القماش. هذه الشخصية لا تُدرج في توزيع الأدوار)^١.
المتسولة:

هذا القمر يذهب وهما يقتربان.
لا يمرّان من هنا. فخير النهر

^١ للتذكير أُشير إلى أن النص الأصلي أدرج هذه الشخصية في بدايته كالتالي: "الموت (كمتسولة)؛ وهو ما ورد في هذه الترجمة. - المترجم -.

سيخدم، مع حفيف الأغصان،
صرخاتهما المتصاعدة الممزقة.
هنا يجب أن يكون، حالاً. أنا تعباً.
يفتحون الصناديق، والكتان الأبيض
ينتظر على أرض غرفة النوم
جسدين ثقيلين عنقاهما جريحان.
لا يستيقظ عصفورٌ والنسيم،
وهو يللمم الأتئين في طيات ثوبه،
يفرّ بهما فوق ذرى الأشجار السود
أو يدفنهما في الوحل الرخو.
(بنفاد صير).

هاهو القمر، هاهو القمر!
(يظهر القمر. يعود الضوء الأزرق الساطع).

القمر:

إنهم يقتربون.

بعضهم عبر المنحدرات

وآخرون عن طريق النهر

سأضيء الصخور. ماذا تحتاجين؟

المتسولة:

- لا شيء.

القمر:

بدأ الهواء يشتد، ويصبح بحدّين.

المتسولة:

أضئِ صدرك وفكّ الأزرار

كي تعرف السكاكين الطريق.

القمر:

لكن، فليتباطأ موتهم كثيراً.

وليضع الدم بين أصابعي صفيّره الرقيق.

انظري كيف تستيقظ ودياني الرمادية

متشوّقة إلى هذا النبع من التدفق المختلج!

المتسولة:

لنحلّ دون عبورهم الساقية. سكوت!

القمر:

هاهم قادمون!

(يذهب. يبقى المسرح مظلاماً).

المتسولة:

بسرعة. الكثير من الضوء. هل سمعتني؟

لا يستطيعان الفرار!

(يدخل الخطيب والفتى الأول. تجلس المتسولة وتتغطى بالدثار).

الخطيب:

- مِِنْ هنا.

الفتى الأول:

- لن تعثر عليهما.

الخطيب (بإصرار):

- بلى سأعثر عليهما!

الفتى الأول:

- أعتقد أنهما ذهبا في اتجاه آخر.

الخطيب:

- لا. أنا سمعت منذ لحظات وقع حوافر الحصان.

الفتى الأول:

- ربما هو حصانٌ آخر.

الخطيب (بأسى):

- اسمع. في العالم كله هناك فقط حصان واحد، هو هذا. هل أخذت

علماً؟ إذا كنت ستتبعني، اتبعني من غير كلام.

الفتى الأول:

- كنت أتمنى ...

الخطيب:

- اسكت. أنا متأكد من أنني سأعثر عليهما هنا.

أترى هذه الذراع؟ إنها ليست ذراعي. إنها ذراع أخي وأبي وكل من

مات من عائلتي. ولها من القوة ما يمكنها من اقتلاع هذه الشجرة من

جذورها لو أرادت. ولنذهب حالياً، فأنا أحس بأسنان كل أقبائي تنغرز
هنا بطريقة تجعل من المستحيل عليّ أن أتنفس بهدوء.

المتسولة (تئن):

- آي!

الفتى الأول:

- هل سمعت؟

الخطيب:

- اذهب إلى هناك وقم بجولة.

الفتى الأول:

- هذه مطاردة.

الخطيب:

- مطاردة. أكبر مطاردة يمكن أن تحصل.

(يذهب الفتى. يتجه الخطيب مسرعاً نحو اليسار ويتعثر بالمتسولة،

الموت).

المتسولة:

- آي!

الخطيب:

- ماذا تريدان؟

المتسولة:

- أشعر بالبرد.

الخطيب:

- إلى أين أنت متجهة؟

المتسولة (وهي تواصل الأنين كمتسولة):

- هناك بعيداً..

الخطيب:

- من أين أتيت؟

المتسولة:

- من هناك ... من البعيد جداً.

الخطيب:

- هل رأيت رجلاً وامرأة مسرعين يمتطيان حصاناً؟

المتسولة (تنتبه):

- انتظر ... (تنظر إليه) فتى جميل. (تنهض). لكنه أكثر جمالاً لو كان نائماً.

الخطيب:

- قل لي، أجيبني، هل رأيتهما؟

المتسولة:

- انتظر ... أي منكبين عريضين! كيف لا يعجبك أن تتمدد عليهما بدلاً من أن تسير على قدميك اللطيفتين؟

الخطيب (وهو يهزها):

- أقول لك إن كنت قد رأيتهما! هل مرّ من هنا؟

المتسولة (بقوة):

- لم يمرّا؛ لكنهما يخرجان الآن من الرابية؛ ألا تسمع ذلك؟

الخطيب:

- لا.

المتسولة:

- هل أنت لا تعرف الطريق؟

الخطيب:

- سأذهب مهما يكن!

المتسولة:

- سأرافقك. أنا أعرف هذه الأراضي.

الخطيب (بنفاد صبر):

- إذا هيّا! من أين؟

المتسولة (باستياء):

- من هناك!

(يخرجان مسرعين. يُسمع من بعيد صوت كمانين يعبران الغابة. يعود

الخطابون. يحملون الفؤوس على أكتافهم. يمرون ببطء بين جذوع

الأشجار).

الخطاب الأول:

آه أيها الموت فلتخرج!

موت الأوراق الكبيرة.

الخطاب الثاني:

لا تفتح فؤارة الدم!

الخطاب الأول:

آه أيها الموت الوحيد!

موت الأوراق الجافة.

الخطاب الثالث:

لا تغط العرس بالأزهار!

الخطاب الثاني:

آه أيها الموت الحزين!

اترك للحب الغصن الأخضر.

الخطاب الأول:

آه أيها الموت القبيح!

اترك للحب الغصن الأخضر!

(يخرجون وهم يتحادثون. يظهر ليوناردو والخطيبة).

ليوناردو:

- اسكتي!

الخطيبة:

بدءاً من هنا سأذهب لوحدي.

اذهب! أريدك أن تعود.

ليوناردو:

- قلتُ اسكتي!
الخطيبة:
بالأسنان،
بالأيدي، مثلما تستطيع،
انزع من عنقي الشريف
معدن هذه السلسلة،
ودعني منزوية
هناك في بيتي.
وإن لم تشأ قتلي
مثل أفعى صغيرة،
ضع في يدي هذه الخطيبة
ماسورة البندقية.
آي، أي ألم، أية نار
يصعدان إلى رأسي!
أي زجاج ينغرز في لساني!
ليوناردو:
لقد قمنا بالخطوة؛ اسكتي!
لأنهم يطاردوننا وقريبون منّا
وعليّ أن آخذك معي.
الخطيبة:

لكنْ بالقوةِ إذا!

ليوناردو:

بالقوة؟ من نزلَ

السلام أولاً؟

الخطيبة:

أنا التي نزلتها.

ليوناردو:

من وضعَ

للحصان لجاماً جديداً؟

الخطيبة:

أنا بنفسى. صحيح.

ليوناردو:

وأية يدين

وضعت لي المهاميز؟

الخطيبة:

هاتان اليدان، وهما لك،

لكنهما عند رؤيتك تودّان

لو تحطمان الأغصان الزرق

وتقطعان همس شرايينك.

أحبك! أحبك! ابتعد!

لو أستطيع قتلك،
لوضعت لك كفنًا
موثىً بالبنفسج.
آي، أيّ ألم، أية نار
يصعدان إلى رأسي!
ليوناردو:
أيّ زجاج ينغرز في لساني!
لأنني أردت النسيان
وأقمت سوراً من حجر
بين بيتك وبيتي.
حقاً. ألا تذكرين؟
وعندما رأيتك من بعيد
ذرت رملاً في عيني.
لكّني امتطيت حصاناً
والحصان ذهب إلى بابك.
بمشابك من فضة
أصبح دمي أسود
والحلم راح يملأ جسدي
بالرغبة فيك.
لم يكن هو ذنبي،

بل ذنبُ الأرض
وهذا الشذى الذي يوضع
من صدرك وطفائرك.
الخطيبة:
آه، أيُّ ظلم! لا أريد
معك سريراً ولا عشاءً،
ولا تمر دقيقة من النهار
لا أريد فيها أن أكون معك
لأنك تجرّني وأنا أتبعك،
وتطلب مني أن أعود
وأتبعك في الهواء
مثل قشة من العشب.
لقد تركتُ رجلاً قاسياً
وتركت كل ذريته
في منتصف العرس
وأنا أضع الإكليل.
لك سيكون العقاب
ولا أريده أن يكون.
دعني وحدي! اهرب أنت!
ليس هناك من يدافع عنك.

ليوناردو:

عصافير الصباح

تأوي إلى الأشجار.

الليلة تحتضر

عند حافة الصخر.

هياً إلى الركن المظلم

حيث أحبك دائماً،

لا يهمني الناس

ولا السم الذي تُرمى به.

(يعانقها بقوة).

الخطيبة:

وسأنام عند قدميك

كي أحرس ما تحلم به.

عاريةً، أنظر إلى الحقل،

(بأسى)

كما لو كنتُ كلبة،

لأتي كذلك! أنظر إليك

وجمالك يحرقني.

ليوناردو:

تستعر نار مع نار.

اللهب الصغير ذاته

يقتل سنبتين معاً.

هيا!

(يمسك بها)

الخطيبة:

إلى أين تأخذني؟

ليوناردو:

إلى حيث لا يستطيع الذهاب

هؤلاء الرجال الذين يقتربون منا.

حيث أستطيع أن أنظر إليك!

الخطيبة (ساخرة):

خذني من سوق إلى سوق،

ألم امرأة شريفة،

إلى حيث يراني الناس

مع ملاء سرير الزفاف

تُرفرف كالرايات.

ليوناردو:

وأيضاً أريد أن أتركك

لو فكرتُ كما يُفكّر.

لكتي أذهب إلى حيث تذهبين.

أنتِ أيضاً. تقدّمي خطوة. جرّبي.
مسامير القمر تصهر خصري وردفيك.
(المشهد بكامله عنيف، يمتلئ بالأحاسيس الشهوانية).

الخطيبة:

- أسمع؟

ليوناردو:

- أناس قادمون.

الخطيبة:

اهرب!

من العدل أن أموت أنا هنا

وقدماي يغمرهما الماء

وأشواك في رأسي.

و الأوراق تبكي،

امرأة ضائعة وعذراء.

ليوناردو:

اسكتي. إنهم يصعدون.

الخطيبة:

اذهب!

ليوناردو:

سكوت. كي لا يشعروا بوجودنا.

أنتِ في الأمام. هيا!

(الخطيبة تتردد)

الخطيبة:

كلانا معاً!

(ليوناردو يعانقها):

كما تريدان!

إذا فرّقوا بيننا،

سيكون ذلك لأنّي ميت.

الخطيبة:

وأنا ميتة.

(يخرجان متعانقين).

(يظهر القمر بكثير من البطء. المسرح يكتسي بضوء أزرق قوي. يُسمع صوت الكمانين. فجأةً تمزّق الجو صرختان طويلتان، وينقطع صوت الكمانين. مع الصرخة الثانية تظهر المتسولة بظهرها. تفتح الدثار وتبقى في المنتصف مثل طائر ضخم ذي جناحين هائلين. يتوقف القمر. تُسدل الستارة في جو من الصمت المطبق).

ستارة

اللوحة الأخيرة

غرفة بيضاء ذات أقواس وجدران سميقة. إلى يمينها وإلى يسارها
سلالم بيض. في العمق قوس كبير وجدار باللون ذاته. الأرضية
أيضاً ذات لون أبيض لامع. إنها غرفة بسيطة لها شكل معماري
لكنيسة. ليس هناك أي لون رمادي، ولا أي ظل، ولا حتى أي عنصر
ضروري للمنظور.

(فتاتان ترتديان الأزرق الداكن تلفان كبة غزل حمراء).

الفتاة الأولى:

كبة الغزل، كبة الغزل،

ماذا تريدان أن تصنعي؟

الفتاة الثانية:

ياسميناً من ثوب،

زجاجاً من ورق

أن أولد الساعة الرابعة،

وأموت الساعة العاشرة.

أن أكون خيطاً من صوف،

سلسلة عند قدميك

عقدة تشدّ

إكليلاً مرّاً من الغار .
فتاة صغيرة (تغني):

هل ذهبتما إلى العرس؟
الفتاة الأولى:

لا .

الفتاة الصغيرة:

وأنا لم أذهب!

تُرى ماذا جرى

لجذع الدالية؟

ماذا جرى

لغصن الزيتون؟

ما الذي جرى

حتى أن أحداً لم يرجع؟

هل ذهبتما إلى العرس؟

الفتاة الثانية:

- لقد قلنا لم نذهب .

الفتاة الصغيرة (وهي تذهب):

- ولا أنا لم أذهب!

الفتاة الثانية:

كبة الغزل، كبة الغزل،

ماذا تريدان أن تغنّي؟

الفتاة الأولى:

جروح من شمع،

ألم من ريحان.

النوم في الصباح،

والسهر في الليل.

الفتاة الصغيرة (عند الباب):

الخيوط يتعثّر

بحجر الصوّان.

الجبال الزرق

تدّعه يمرّ.

يجري، يجري، يجري،

وأخيراً سيصل

ليضع السكين

ويزيل الخبز.

(تذهب).

الفتاة الثانية:

كبة الغزل، كبة الغزل،

ماذا تريدان أن تقولي؟

الفتاة الأولى:

عاشق صامت.
خطيبٌ قرمزي.
عند الضفة الصامته
رأيتهما راقيدين.
(تتوقف متأمله كبة الغزل).
الفتاة الصغيرة (تطل عند الباب):
يجري، يجري، يجري،
الخييط حتى هنا.
أشعر بهما قادمين
مغطيين بالطين.
جسدان أنوفان،
أقمشة من عاج!
(تذهب).
(تظهر زوجة ليوناردو وحماته. تصلان متوترتين).
الفتاة الأولى:
- هل هم قادمون؟
الحماة (بمرارة):
- لا ندري.
الفتاة الثانية:
- ماذا ترويان عن العرس؟

الفتاة الأولى:

- قل لي لي.

الحماة (بجفاء):

- لا شيء.

الزوجة:

- أريد أن أعود كي أعرف كل شيء.

الحماة (بطريقة حازمة):

أنتِ، إلى بيتك.

شجاعة ووحيدة في بيتك.

لكي تهرمي ولكي تبكي.

لكن الباب مغلق.

أبداً. لا ميت ولا حي.

سنضع المسامير في النوافذ.

وتأتي أمطارٌ وليالي

فوق الأعشاب المرة.

الزوجة:

ما عساه أن يكون قد حدث؟

الحماة:

لا يهم.

ضعي خمراً على وجهك.

أبناؤك هم أبناؤك أنت
ليس غير . على السرير
ضعي صليباً من رماد
حيث كانت وسادته.

(تخرجان)

المتسولة (عند الباب):

- قطعة خبز، يا فتيات.

الفتاة الصغيرة:

- اذهبي!

(الفتيات يتجمعن).

المتسولة:

- لماذا؟

الفتاة الصغيرة:

- لأنك تتنين، اذهبي.

الفتاة الأولى:

- يا صبية!

المتسولة:

كان في وسعي أن أطلب عينيك! سحابة

من الطيور تتبعني؛ هل تريدين واحداً؟

الفتاة الصغيرة:

أنا أريد الذهاب!
الفتاة الثانية(للمتسولة):
- لا تكثرني بها!
الفتاة الأولى:
- هل جئتِ عن طريق الساقية؟
المتسولة:
- من هناك جئت!
الفتاة الأولى (بخجل):
- هل بإمكانني أن أسألكِ؟
المتسولة:
شاهدتهما؛ يصلان قريباً: سيُلان
توقفاً في النهاية بين صخور هائلة،
رجُلان بين قوائم الحصان.
ميتان في بهاء الليل.
(بتلذذ).
ميتان، أجل ميتان.
الفتاة الأولى:
اسكتي، أيتها العجوز، اسكتي!
المتسولة:

عيونهما زهورٌ ممزقة، وأسنانهما
حفننا ثلج تجلّد.
سقط الاثنان، وتعود الخطيبة
بنوبٍ وشعرٍ مخضّبين بالدم.
يغطّيهما دثاران يأتیان
فوق أكتاف الفتية الطوال.
هذا ما حصل؛ ليس غير.
كان هذا عادلاً.
فوق زهرة الذهب، رملٌ منسّخ.
(تذهب. تطأطئ الفتاتان رأسيهما وتتجهان للخروج بطريقة إيقاعية).
الفتاة الأولى:
رملٌ منسّخ.
الفتاة الثانية:
فوق زهرة الذهب.
الفتاة الصغيرة:
فوق زهرة الذهب
يأتون بميتي الساقية.
واحدٌ أسمر،
والآخر أسمر.
أيُّ طيفٍ عندليب يطير ويئنّ

فوق زهرة الذهب!

(تذهب. يبقى المسرح خالياً. تظهر الأم مع إحدى الجارات. الجارة تأتي
باكية).

الأم:

- اسكتي.

الجارّة:

- لا أستطيع.

الأم:

- قلت لكِ اسكتي. (عند الباب) ألا يوجد أحد هنا؟ (تضع يديها على
جبينها) كان على ابني أن يجييني. لكنّ ابني هو الآن حزمة من زهور
جافة. ابني هو الآن صوت مبهم وراء الجبال. (إلى الجارة بغضب) ألا
تريدين أن تسكتي؟ لا أريد بكاءً في هذا البيت. دموعك هي مجرد
دموع تذرفها العيون. ودموعي ستأتي عندما أكون وحيدة، من أسفل
قدمي، من جذوري، وستكون أكثر اتقاداً من الدم.

الجارّة:

- تعالي إلى منزلي؛ لا تبقي هنا.

الأم:

- هنا. هنا أريد أن أكون. وهادئة. لقد مات الجميع. سأنام عند
منتصف الليل. سأنام من غير أن ترعيني السكّين أو البنادق. أمهات
أخريات سينتظرن عند النوافذ، والمطر يعصف بهن، كي يرين وجوه

أبنائهن. سأخلق مع حلمي حمامة باردة من عاج تحمل زهرات كاميليا من جليد لتضعها على المقبرة. لكن لا؛ مقبرة لا، مقبرة لا: سرير من تراب، سرير يحميهم ويهددهم في السماء. (تدخل امرأة ترتدي السواد وتتجه إلى اليمين، وهناك تجثو على ركبتها. إلى الجارة) أبعد يديك عن وجهك. علينا أن نجتاز أياماً رهيبية. لا أريد أن أرى أحداً. الأرض وأنا. بكائي وأنا. وهذه الجدران الأربعة. أي! أي! (تجلس منهكة).

الجارّة:

- أشفقي على نفسك.

الأم (وهي تأخذ شعرها إلى الخلف):

- عليّ أن أكون هادئة. (تجلس). لأن الجارات سيأتين ولا أريد أن يرئني بهذا البؤس. بهذا البؤس! امرأة ليس لديها ابن تستطيع حتى أن تردد اسمه على شفيتها.

(تظهر الخطيبة. تأتي بلا إكليل الزهر وبرداء أسود).

الجارّة (تتظر إلى الخطيبة بغضب):

- إلى أين تذهبين؟

الخطيبة:

- آتي إلى هنا.

الأم (للجارّة):

- من هذه؟

الجارّة:

- ألا تعرفينها؟

الأم:

- لهذا أسأل من هذه. لأن عليّ ألا أتعرّف عليها، كي لا أغرز أسناني في رقبته. أفعى! (تتوجه إلى الخطيبة بطريقة صاعقة؛ تقف. إلى الجارة) أرايتها؟ هي هناك وهي تبكي، وأنا هادئة من غير أن أقتلع عينيه. لا أفهم. لربما أنا لا أحب ابني؟ لكن وسمعتة؟ أين هي سمعتة؟ (تدفع بالخطيبة. فتقع هذه على الأرض).

الجارّة:

- كرمى الله (تحاول الفصل بينهما).

الخطيبة (للجارّة):

- دعيها؛ أنا جئت لكي تقتلني ولكي يأخذوني معهما. (إلى الأم) لكن ليس بالأيدي؛ بكلايب، بمنجل، وبقوة، حتى تتكسر على عظامي. دعيها، فأنا أريدها أن تعرف أنّي نظيفة، أنّي قد أكون مجنونة، لكن باستطاعتهم أن يدفنوني من غير أن يكون أي رجل قد رأى بياض صدري.

الأم:

- اسكتي، اسكتي؛ وماذا يعينني من هذا؟

الخطيبة:

لأني ذهبت مع الآخر، ذهبت! (بألم) أنت أيضاً لو كنت مكاني لذهبت. كنتُ امرأة تحترق، تملؤني القروح من الداخل ومن الخارج،

وابنك كان مثل القليل من الماء الذي كنت أنتظر منه الأبناء، والأرض،
والصحة؛ لكنّ الآخر كان نهراً غامضاً، مليئاً بالأغصان، كان يقرب
مني وشوشات أسله وغناؤه من بين أسنانه. وأنا كنت أجري مع ابنك
الذي كان مثل طفلٍ من الماء البارد، بينما كان الآخر يبعث إليّ بمئات
الطيور التي تعيقني عن السير وتخلّف الصقيع فوق جروح امرأة ذابلة،
فتاة داعبتها النار. أنا لم أكن أريد، اسمعي هذا جيداً! أنا لم أكن أريد.
كان ابنك غايتي وأنا لم أخدعه، لكن ذراع الآخر جرفتني كموجة بحر،
كنطحة بغل؛ وكانت ستجرفني دائماً، دائماً، دائماً، ولو أصبحت عجوزاً
وكل أبناء ابنك يشدّونني من شعري.
(تدخل إحدى الجارات).

الأم:

- هي ليست مذنبه، ولا أنا! (ساخرة) من المذنب إذا؟ إنها المرأة
الضعيفة، المرهفة، الأرقه، تلك هي التي ترمي بإكليل العرس ملتمسةً
ركناً من فراش أدفأته امرأة أخرى!
الخطيبة:

- اسكتي، اسكتي! انتقمي مني؛ هذه أنا! انظري إلى عنقي كم هو
طري؛ لن يكلفك من الجهد سوى أقل من قطف زهرة أزاليا من
حديقتك.. لكن هذا لا! أنا شريفة، شريفة مثل طفلة وليدة. وبإمكاني أن
أبرهن لك على ذلك. أوقدي النار. وهياً نضع فيها أيدينا: أنت من أجل

ابنك؛ وأنا من أجل جسدي. وستسحبين يديك أنت قبلي. (تدخل جارة أخرى).

الأم:

- لكن ماذا يهمني أنا من شرفك؟ ماذا يهمني من موتك؟ ماذا يهمني من أي شيء؟ مباركة حقول القمح، لأنها تحتضن أبنائي، مبارك المطر، لأنه يبيل وجوه الموتى. وتبارك الرب، الذي يمددنا معاً للراحة الأبدية. (تدخل جارة أخرى).

الخطيبة:

- دعيني أبكي معك.

الأم:

- إذا أردت أن تبكي، فعند الباب.

(تدخل الفتاة الصغيرة. تبقى الخطيبة عند الباب. الأم في وسط المسرح).

الزوجة (تدخل وتتجه نحو اليسار):

كان فارساً جميلاً،

والآن كومة من الثلج.

طاف أسواقاً وجبالاً

وتنقل بين أحضان النساء.

الآن، طحلب الليل

يتوج جبينه.

الأم:

عبّاد الشمس لأمك،

مرآة الأرض.

فليضعوا على صدرك

صليباً من الدّقلي المرّة؛

ودثاراً يغطّيك،

من الحرير اللامع،

وليصبح الماء بكاءً

بين يديك الساكنتين.

الزوجة:

آه، أربعة فتية

يصلون بأكتافٍ تعبئة!

الخطيبة:

آه، أربعة شبّانٍ ناضرين

يأتون بالموت عبر الهواء!

الأم:

- أيتها الجارات.

الفتاة الصغيرة (عند الباب):

ها إنهم يحضرونهما.

الأم:

إنه الشيء نفسه،
الصليب، الصليب.
النساء:
مسامير حلوة،
صليب حلو،
والاسم الحلو
ليسوع.
الأم:
فليحِ الصليب أحياءنا.
يا جارات، بسكين،
بسكين صغيرة،
في يومٍ محدد، بين الثانية والثالثة،
تقاتل رجلا الحب.
بسكين،
بسكين صغيرة
لا تكاد تمسك بها اليد،
لكنها تخرق بحدّة
الأجساد، على غرّة،
وتتوقف في الموضع
حيث يرتجف متشابكاً

جذر الصرخة الغامض.

الخطيبة:

وها هي سكين،

سكين صغيرة

بالكاد تمسك بها اليد؛

سمكة بلا حراشف ولا نهر،

في يوم محدد،

بين الثانية والثالثة،

بهذه السكين

أصبح رجلان صلبان

بشفتين صفراوين.

الأم:

وبالكاد تمسك بها اليد،

لكنها تخترق الأجساد

باردةً على غرّة

وهناك تتوقف، في الموضع

حيث يرتجف متشابكاً

جذر الصرخة الغامض.

(الجارات، الجائثيات على الأرض، يبكين).

ستارة

النهاية

المحتوى

مقدمة الصفحة ٥

مانويل فيفيرو

الشخصيات ١٧

الفصل الأول

اللوحة الأولى ١٩

اللوحة الثانية ٣٥

اللوحة الثالثة ٤٩

الفصل الثاني

اللوحة الأولى ٦٥

اللوحة الثانية ٩١

الفصل الثالث

اللوحة الأولى ١١٧

اللوحة الثانية ١٤١